obeikan.com

هزائم متكررة

هزائم متكررة
رواية
محمد أيوب
الطبعة الأولى

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل :٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع :٢٠١٧/٣٢١٨٥
رقم الترقيم الدولي :978-977-798-068-8

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

obeikan.com

محمد أيوب

هزائم متكررة

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلي العظيم وأستاذ الرواية العربية

محمد الراوي

obeikan.com

كثيراً من هؤلاء الناس الذين نراهم يمضون من حولنا في نهر الحياة، دهستهم الحياة من قبل مرة أو مرات. لكنهم انتفضوا ليواصلوا المسير.
فالحياة طيبة رغم كل شيء، ورغم أنها في مثل تلك الحالات تغدو مثقلة بذكري اللحظات الأليمة.. تغدو مفعمة بالشجن.. والشجن حزن جليل.

والجلال أعلي مراتب الفتنة.

د. محمد المخزنجي

obeikan.com

إن كل ما ستقرأه اعترافاتي الحقيقية، لا مجال للسخرية منها أو للتشكيك فيها من فضلك، فلماذا تسخر مني ؟ بعد ما فعلته الأيام بي ولماذا تشكك بي ؟!

ربما تكون كاذب وخائف مثلي، بالتأكيد في حياتك مواقف مخزية تخشي حتى تذكرها أو الأعتراف بها ولو لنفسك..

أنا أمتلك تلك الجرأة والشجاعة وسجلت إعترافاتي وكل شيء عن حياتي بدون خجل أو خوف، لكن أرجوك لا تحكم بأي شيء قبل أن تكمل للنهاية..

وقبل أن أخرج من هنا، احترم رغبتي من فضلك..

فهذه أدني حقوقي.. !

obeikan.com

obeikan.com

- ١ -

اعتدت الخروج مبكراً قبل موعد العمل كي أترك مساحة كافية من الوقت لقطع المسافة سيراً علي الأقدام، الهواء المنعش من بقايا الفجر الخالي من الأتربة والأدخنة، والشوارع الشبه خالية، يشجعانني علي السير وممارسة هوايتي بالتسكع وتأمل البيوت الساكنة والمحلات المغلقة، هواية لا أعلم متي بدأت أو ما المستفاد منها، وهل يجوز أن أطلق عليها هواية من الأساس؟!

لم أشغل نفسي بكل هذا، كنت أمشي متمهلاً، أمعن النظر في كل شيء لمجرد النظر، تأملي هذا يجعلني أقضي المسافات الطويلة دون أن أشعر بها، أغني ما أحفظه مرات ومرات دون ملل.

كل هذا يمنحني ثمة إحساس بل يقين بالسعادة، وفي هذا الوقت نقشت علي أكثر من مكان كلمتي المأثورة « السعادة في الرضا «، الآن أجد مأثورتي هذه علي الكثير من سيارات السيرفيس « الميكروباص « ضمن آلاف المأثورات الأخري من شعب منهك والتي بدأت تنتشر بل تحولت لظاهرة تستحق الدراسة، لكن، من يدرس ؟ ومن يهتم ؟!

لن ينتبه أحد وستمضي الحياة بسرعتها المذهلة تدهس كل شيء، كل ما هو أسفل لصالح كل ما هو أعلي.

كنت حريصاً أن تبقي فلسفتي بعيدة عن ما أشعر به حتي أضمن الأستمرار، لذلك كنت أحارب نفسي بنفسي، كنت أدعم نفسي ضد نفسي.. !

أقول واثقاً، هوايتي هذه فريدة من نوعها، وإن مارسها غيري سيتغير حاله

obeikan.com

للأفضل وستجلب له سعادة تعينه، فأقوم بالرد علي نفسي قائلاً، أنت تمشي علي الأقدام لمجرد توفير أجرة « الميكروباص «..؟!

أشعر بالضيق وأقف محرجاً فتزداد قسوتي عليٍ وأطلق الضربة القاضية وأقول، إذاً فلماذا تعود أيضاً سيراً علي الأقدام رغم الزحام والضوضاء والأتربة والمضايقات ورغم أنك تعود خائر القوى من عشر ساعات عمل..؟!

لم ولن أجد إجابة، تأكدت يقيناً من هذا، لذلك قلت من الأفضل أن أقنع نفسي بالكف عن أعداد هذه المواجهات المؤلمة مرة أخري، فهل يعقل في بلادنا التعيسة هذه أن يوجد أحد يحاسب نفسه، ما هذا الهراء ؟!

يكفي الروح ما بها من شقاء يلازمها في كل أركان الحياة، ونجحت في إقناع نفسي بنفسي أيضاً وعدت لإبتسامتي.. !

***

غالباً قبل خروجي تكون أمي قد استيقظت لكنها تبقي في حجرتها تراقبني من بعيد، أعلم هذا جيداً، تود لو تقوم وتتحدث معي وأن تُسمعني دعواتها الجميلة بدلاً من أن تُتمتم بها من فراشها، تتمني لو تصر علي جلوسي حتى تنتهي من إعداد وجبة الإفطار لي، أشياء كثيرة تمنعها من النهوض وفعل كل هذا، كل ما يدور بداخلها أتفهمه وأدركه، متأكد من كونها تشفق علي وتحبني لكنها مضطرة أن تتصنع النوم حتي أخرج توفيراً لوجبة إفطار مكونة من كوب لبن وربع رغيف أو نصف رغيف في أحسن الأحوال..!

اللعنة علي الفقر، واللعنة علي كل أشكاله، وقبل كل ذلك اللعنة علي كل أسبابه، اللعنة عليهم جميعاً.. !

« يا أمي، لا أريد كوب اللبن ونصف الرغيف، لكني أريد ابتسامتك الصافية..! »

ليتني أستطيع أن أنطق هذه الكلمات أمامها، لن أستطيع، يهزمنا الوجع كل يوم، من الأفضل أن أتوقف عن التفكير، اتفقت مع نفسي علي الرضا، شيء عادي ألا تسمح ميزانيتنا بالثلاث وجبات كاملة لكل أفراد الأسرة، وشيء

obeikan.com

عادي أن أساعد أمي بخروجي مبكراً توفيراً لوجبة إفطار وأن أساعدها مرة أخري بتسللي للنوم بعد صلاة العشاء مباشرة قبل أن تراني فأوفر لها وجبة أخري، يجب ألا يحزنني هذا، هناك من هم أشد منا بؤساً، لكن لماذا البؤس أساساً، هل اتفق الوطن مع نفسه علي الرضا بالبؤس لأبناءه مثلما اتفقت أنا بحزني..؟!

الرضا شيء جميل، لكن الرضا شيء والخنوع شيء آخر، ما هذا الوجع ؟ ومتى سيتوقف عقلي عن التفكير ؟ التفكير لا يجلب إلا المزيد من الهم، أنا لا أريد أوجاعاً جديدة، يكفي أن هذا الهروب صار جزءاً من حياتي، وأن عينيي لم تعد تتلاقي مع عينيي أمي العسليتان، الخجل يمنع التلاقي تارة، والإشفاق تارة، والضعف آلاف المرات، كنت ومازلت مع أمي يجمعنا بيت صغير لكني أشتاق إليها، أشتاق إليها بشكل جنوني.

يا الله، هون علينا...

obeikan.com

obeikan.com

- ٢ -

لا أعلم لماذا دار هذا الكلام في ذهني مرة أخري في هذا اليوم تحديداً، هذه مسلمات تقريباً أصبحت أؤمن بها منذ زمن كأن البؤس فرض علينا، لماذا لا يشعر بنا هذا الوطن ؟ قلبي كان يملأه شجن غريب لم أشعر به من قبل في هذا اليوم، لكني كالعادة هزمته أو تجاهلته وخرجت.. !

بيتنا المكون من طابقين بهما أربع شقق متساويين في المساحة تقريباً – ٦٧ سم – من حظه السيىء – كحظنا تماماً – انه يطل علي شارع يقال انه رئيسي – لكنى لا أعرف ماذا يرأس هذا الشارع، غالباً لأنه يرأس المزيد من شوارع بائسة مثله وجاءت تسميته رئيسي لأنه يتحمل القدر الأكبر من المساوئ والمصائب – وبمجرد انتهائي من السلالم المتهالكة استقبلتني مياه الصرف الصحي عند البوابة الخشبية الموشكة علي السقوط في أى وقت، أن تطفو مياه الصرف الصحي فهذا بالنسبة لنا بمثابة الكوارث الطبيعية لدي الدول المتقدمة، انزعجت وأدركت لماذا كان قلبي منقبضاً منذ قليل..!

بدأت بأول خطوات المقاومة، ومن أسفل السلالم جئت بقطع البازلت المخزنة خصيصاً لهذا الموقف، وشرعت في وضعها داخل المياه حتى نتمكن من الخروج، كل نصف متر تقريباً وضعت قطعة كي أعبر، وأستطعت بسهولة الخروج إلي الشارع، ومهدت طريق الخروج من البيت لباقي أشقائي وأبي وكل من في البيت، ورحت استطلع عن مصدر هذه المياه، فوجدت أن بئر الصرف الصحي ينضح بكميات مهولة من المياه القذرة، وفي أقل من دقائق تحول الشارع لحمام سباحة كبير، البئر يضخ دون توقف ومنسوب المياه

يرتفع وجحافل الذباب والحشرات حضرت في الحال.
أصابني الفزع بعدما أدركت أن مياه الصرف الصحي هذه المرة مختلفة، لم يكن مجرد كسر في خط متهالك كالمعتاد وسيتم معالجة الأمر سريعاً، عدتُ لبيتنا مرة أخري وتأكد لي ما أدركته، قطع البازلت اختفت تحت المياه، هذه كارثة لا محال، ينبغي أن أعود وأخبر أبي بما يجري، سيقوم مفزوعاً ويقف مثل باقي الجيران يلعن كل شيء دون أن يفعل شيء..!
اندفعت داخل المياه بدون تردد وصعدت أول درجات السلم ثم توقفت، سيكرهني أبي لأنني أفزعته.
في الصيف الماضي جئت أخبره بأن أخي يتشاجر ورأسه تسيل منها الدماء في الملعب الترابي، دفعني وهرول وأنقذ أخي بنقله للمستشفي، لكنه ظل شهور بعدها يكره رؤيتي وقال انه لا يتفاءل بي، لم يعقاب أخي الذي قام بالمشاجرة وعاقبني أنا لإخباره بما حدث، لم يغضب من أخي لأنه يستخدم الكرة كأداة للقمار ويلعب علي مصروفه، وغضب مني لأنني أسرعت إليه كي ينقذه من الموت.. !

***

تراجعت. قلت لن أخبره بشيء مرة أخري، لن أفزعه مهما حدث حتى لا يعاقبني مرة أخري علي شيء لا ذنب لي فيه، لن أفعل شيء بسببه أكون مكروه في عينيه، تكفيني قسوته المعتادة، لكن المياه تتدفق بكثرة والموقف يتأزم، خطر علي ذهني أن أبلغ أحد أعمامي، لأبي ثلاثة أشقاء وكلهم يقطنون معنا في نفس البيت الذي شيده جدي من خمسون عاماً أعتقد، لكني لم أر طيلة حياتى أن أحد منهم فعل شيئاً للبيت أو لأحد.. !
دائماً أبي هو المسئول عن كل شيء، المهم والتافه، رغم أن أبي لم يكن أكبرهم سناً لكني منذ ولدت والوضع هكذا دون ثورة.
يرهقني عقلي بهذا الجدل غير المناسب في وقت صعب كهذه الأزمة الخطيرة، ينبغي أن يكون قراري بأقصي سرعة ممكنة، فاندفعت داخل مياه الصرف،

لا، لن أفزع أبي مرة أخري مهما حدث، بالتأكيد سيخبره خلال دقائق أحد الجيران الذين تعصف بهم الأزمة مثلنا، لن يلوم أحد عليٍ، أنا ذهبت إلي العمل قبل حدوث ما يحدث.. !

كنت حزيناً لأنني ذهبت وتركت بيتنا في قلب الأزمة، أزمة قد تعصف به، البيت قديم هش وركود الماء به خطراً عليه، قلبي كان يتمزق، لم تفلح فلسفتي في إقناعي بشيء معاكس من خلاله أجد أعذار واهية لنفسي كعادتي، أنا ضعيف، لا محال في ذلك، إنسان يترك أهله في أزمة ويهرب، إنسان جبان لا قيمة له، منعت دموعي من السقوط وأكملت المشي هرباً، كنت مجبراً علي تغيير خط سيري من الشارع الرئيسي الغارق، اخترقت الشوارع الجانبية الضيقة المملؤة بالبشر والقمامة والهموم، اختفت هوايتي والسعادة وكل شيء وتبقي ضعفي، ضعفي فقط.. !

فشلت في كبت دموعي، سقطت من قلبي قبل عيني، لم تهون الدموع شيئاً بل أججت النار المشتعلة في ضميري، غضبي بدأ يتجه ضد أبي، أبي هو الأولي باللوم، هو السبب فيما وصلت إليه وفيما فعلت، لم يستخدم العدل بعد مشاجرة أخي، عاقبني وأهانني وتركه كأنه لم يفعل شيئاً، جعلني أخاف حتي من مجرد الحديث إليه، لم ينتبه أحد لظلمه لي، واجهت نفسي بكل شجاعة وقتها، وقلت وهل لأنه لم يستخدم العدل، استسلم أنا للضعف والصمت..؟!

ما علاقة غياب العدل بانتشار الضعف..؟!

obeikan.com

obeikan.com

- ٣ -

تأنيب الضمير كان بمثابة وحش كاسر نهض يفترس حيوانات وديعة تعيش بجواره لمجرد إحساسه بخيانتها، ضميري افترس براءتي وضحكتي، أنا خنت الصحيح لمصلحة الخطأ، ضعفي أجبرني علي ذلك، ضعفي الذي أمقته لكني أتشبث به بشكل متزايد دون أن تكون لي إرادة في ذلك، دموعي لا شيء، أنا أستحق أن يُفتك بي مثلما يُحدث بي الآن.. !

قطعت أكثر من نصف المسافة نحو مقر عملي وهذه المعارك – أو عملية الفتك – تدور بداخلي، كانت ستستمر بنفس العنف لولا أنني سمعت نحيب وشتائم متبادلة جذبت انتباهي، قادني الفضول نحو الحارة الضيقة كي أري ما يدور هناك، توقفت دموعي فجأة، مازال هناك وقت يسمح لي برؤية ما يحدث.

كانت أهم تعليمات أبي، الأبتعاد عن كل شيء يصنع المشكلات، حتي وإن كانت بطريقة غير مباشرة، حتى المشاهدة قد تجعلك تتورط في المشكلة ولو شاهداً، تبتعد أفضل، كنت مقتنع بصحة تعليماته، ولكن في هذه اللحظة كان لدي رغبة في كسر أي شيء حتي ولو كانت قاعدة ضعيفة باهتة مثلي.. !

دلفت إلي الحارة ضارباً بتعليمات أبي عرض الحائط، وليتني ما أقدمت علي ما فعلته، صُعقت عندما رأيت « عم بيومي « يبكي ودراجته « النصر « ملقاة علي الأرض والطماطم قد افترشت الأرض وذهبت ثمرة الكرنب بعيداً.

« العسكري « ذو النصف شارب يضرب « عم بيومي « بشيء يشبه الكرباج، لكنه لم يكن كرباج ولا أعلم ما هو، « عم بيومي « يبكي كالأطفال الصغار في

مشهد مؤلم ومؤسف للغاية، « العسكري « ثابتاً متمكن من قوته واستخدامه الجيد لما في يديه، « وعم بيومي « بجسده الضخم يصرخ دون أن يسمعه سواي.. !

يحاول « عم بيومي « النهوض وأخذ دراجته ليمضي هرباً، فيقترب منه « العسكري « ويضربه بمنتهي الغباء، فينفعل « عم بيومي « ويثور ويصرخ بشكل هستيري ويشتمه ثم ينظر يميناً ويساراً باحثاً عن شيء يدافع به عن نفسه، فيجد حجارة ويقذفها فيكرر « العسكري « الضرب ويتأوه « عم بيومي « ويبكي مرة أخري ألماً وقهراً.. !

كنت أشاهد كل هذا وأنا مختبئ خلف عربة خشبية قديمة توجد في أول الحارة، ارتجف جسدي وشعرت بارتعاش شديد يمتلكني، لماذا يعذب هذا القذر « عم بيومي « الرجل الطيب الطاعن في السن..؟!

عم بيومي يعمل مع أبي في المديرية بقسم الأمن والحراسة، لا يستحق ما يحدث له، ولا يجوز أن يُهان هكذا وهو علي مشارف الستين من عمره، وابنه الأكبر مدرس لغة عربية في مدرستي الابتدائية المجاورة لبيتنا ،بكيت لوجعه لكنني لم أجرؤ حتي علي التفكير في مساعدته، المعركة أكبر من إمكانياتي، بدأ بكائي يتزايد وارتفع صوتي، خفت أن يراني « العسكري « ويبطش بي، قلت ينبغي أن أهرب حالاً من هنا، أو الأفضل أن أبلغ أبي كي يأتي وينقذ « عم بيومي « زميله، لكنى تراجعت، خفت أن ينال أبي ما يناله « عم بيومي « فتجدد بكائي وقررت الانصراف إلي عملي ، وخرجت من خلف العربة الخشبية ورأيت « عم بيومي « يحاول مرة أخري نيل دراجته والهرب من أمام هذا القذر، وبمجرد أن وضع يده علي دراجته جاء العسكري ووقف أمامه ودهس المتبقي من الطماطم وهو يضحك بصوت مستفز، بصق « عم بيومي « علي وجهه فصفعه « العسكري « علي وجهه، فانهمرت مني المياه داخل بنطلوني.. !

- ٤ -

تم القبض علي أبي من داخل المنزل، فوجئنا بطرق الباب بقوة، كنت نائماً لكني شعرت بما يحدث، وأقلقتني حالة الهلع، ومع أول صرخة لأمي قمت مفزوعاً، خرجت لأقف بين أشقائي المفزوعين مثلي، ثلاثة من رجال الشرطة ينتظرون أبي علي الباب وأمي الباكية ذهبت لإيقاظه.

خرج أبي من غرفته بجلابيته الزرقاء وقبل وصوله للباب عاد لغرفته مرة أخري دون أن ينطق بكلمة واحدة، بعدما قال له أحد رجال الشرطة، تفضل بتغيير ملابسك، نحن في انتظارك، استكملت أمي صرخاتها المدوية وهي تنظر لأبي الصامت، وفي لحظة – كأنهم قد اتفقوا – سقطت الدموع من أعين كل أشقائي عدا أنا وأخي الأصغر، لا أعرف لما لم أبكي وقتها رغم أنني كنت خائفاً وجسدي يرتعش، أمي تلطم خديها وتنوح بكلمات غير مفهومة، وأبي بثبات يرتدي ثيابه الرسمية، شيء ما بداخلي كان يقول بأن أبي يعرف لماذا جاءوا له ؟ وإلي أين هو ذاهب..؟!

خرجت أمي خلف أبي من الباب وظلت تصرخ وتتشبث به وهو يسلم نفسه لهم ويهبط معهم السلالم، أختي الكبيرة أمسكت بها تمنعها وهي تبكي مثلها، الأرض كأنها تهتز تحت بيتنا، عاصفة مفاجأة تكاد تقتلع جذور بيتنا الضعيفة، أبي مثل كل الآباء في كل البيوت هنا، أبي هو عمود الخيمة، هو الآن يرحل أمام أعين رعيته الخائفة من غيابه ومن مصيرهم دونه.

كنت أري كل هذا وأكثر، لا أستطيع وصفه، لكن تركيزي كان علي عيني أبي المنكسرة، أبي لم يرفع عينيه كان يعلم انه منهزماً، صمته كان مريباً، ذهب

obeikan.com

لمجهول لا يعلمه أحد، وسقطت أمي علي الأرض مغشياً عليها وحولها أشقائي وأعمامي وزوجاتهم والدموع تملأ كل العيون عدا أنا وأخي الأصغر.. !

***

انتقلت المعركة – مؤقتاً – لإسعاف أمي خاصة بعد أن طالت غيبوبتها لمدة ساعتان كان الهم فيهم قد اخترق كل القلوب والعقول، كانت ليلة هي الأسوأ في تاريخ أسرتنا، عادت أمي لفراشها قرب الساعة الثانية بعد منتصف الليل وتنفسنا الصعداء رغم انها لم تكن واعية بشكل كامل.

طبيب الوحدة الصحية قال انها تعرضت لصدمة عصبية وتحتاج لراحة، لكنه لم يقل لنا من أين تأتي الراحة..؟!

هي أشياء لا تُشتري.

بقيت أمي علي فراشها تغمغم وأختي الكبيرة بجوارها وباقي أشقائي معي خارج الغرفة والصمت يفرض سيطرته، وكل نصف ساعة كان يتقدم أحد أشقائي ويطرق الباب برفق ويدخل ليطمئن عليها، بدأ كأنه منظم، لكنه لم يكن مرتب، حين جاء دوري في السؤال والاطمئنان نظرت لي أختي الكبيرة باستهجان لأنني لم أتقدم لباب الغرفة، أعلم أن أختي تستنكر قوتي، لاحظت عدم بكائي لحظة القبض علي أبي وعدم بكائي في الوحدة الصحية، سألتها، أمي بخير الآن ؟ لكنها لم ترد علي فتأكدت من شعورها نحوى وخرجت.

Obeikan.com

- ٥ -

مزق « فارس « كل كتبه وكراساته – التي نادراً ما يستخدمها – يأتي بالكتاب ويحوله لأوراق منفصلة ثم يركنها بجواره ليبدأ في كتاب آخر وهكذا، انتهي كل ما يمتلكه من كتب لتل الأوراق، الأجواء لم تكن تسمح بأن يتابعه أحد، فعل ما فعله بهدوئه المعتاد في كل تصرفاته، لاحظت ما يقوم به لكنى لم أعلق وتركته.

الحزن كان قد فرض سيطرته علي كل شيء، بعد ذلك فرز « فارس « الأوراق وصنفها لملون وأبيض، وبدأ في تدبيس الأوراق، ورقة بيضاء يليها ورقة ملونة وهكذا، وصنع في النهاية أربع ستائر ورقية وضعها بجانبه وتفرغ فيما بعد لتنظيف الأرضية وإعادة كل شيء لمكانه.

***

بعد ذلك أيقظنا آذان الفجر جميعاً وأنهي غفوتنا المؤقتة وبدأنا ننظر لبعضنا البعض دون أن يتحدث أحد، علي وجهنا سؤال واحد لا يوجد غيره، ما الذي يفترض أن نفعله، ولأننا ندرك أن لا سبيل لنا للوصول لإجابة اكتفينا بالصمت وتبادل النظرات.

فكرت في النزول للمسجد وصلاة الفجر في جماعة، هممت بالنزول لكني تراجعت، سيقولون أنني أصلي لأننا فقط في أزمة، أيام الدراسة كنت أنتقد من يهرول للمسجد أيام الأمتحانات ويتركه باقي أيام السنة، فيما بعد تغيرت نظرتي لهذا الأمر، لكني لن أفعل مثلهم، مع أنني أعلم أنه لا مانع أن ألجأ لرب العباد في أى وقت، « وإذا سألك عبادي عني فأني قريب «، نظرة الناس لما نفعل تابوت ما أقذره، متى سأهزم معتقداتي الخاطئة..؟!

قمت وصليت في غرفتي ولم أذهب للمسجد، خضعت لسيطرة التابوت القذر، مازال ضعفي يقودني، مازلت قادراً علي ضبط نفسي متلبساً كعبد ذليل لحالة الضعف هذه، لكني هربت من نفسي كالعادة وخرجت لأشقائي، كانوا قد بدءوا في الاطمئنان علي أمي مرة أخري، وأنا لم أحاول مرة أخري الاقتراب من غرفتها ومواجهة أختى الكبيرة، واكتفيت بسؤال من دخل ليراها.. !

تحسنت أمي بشكل طفيف، وبدأت تسمع من يتحدث معها دون أن تجيب.. !

***

طرق عمي « فايز « الباب المفتوح ودخل ليخبرنا بما حدث، أسرعنا جميعاً للوقوف أمامه، وجهه كان منكسراً، فأدركت قبل أن يتحدث بأن ما سيقوله غير سار، طأطأ رأسه قليلاً وقال أن أبي محجوز في قسم الشرطة لحين عرضه علي النيابة صباحاً والأمر يتعلق بعمله، مخزن المستشفي به اختلاسات.. !

صرخ « فارس « صرخة مدوية أجبرت عمي علي التوقف وجعلتنا ننظر نحوه، كان « فارس « قد تحرر من كل ملابسه إلا ما يستر عورته، والستائر الورقية التي صنعها قد قام بلصقها علي أبواب الغرف كأنه يود إلغاء الغرف وأن تبقي الحوائط مكتملة دون أبواب، وبمجرد أن تحول نظرنا نحوه، ضحك بصوت غريب، اندهشنا لما يحدث، وقبل أن ينطق أو يقترب منه أحد، قفز في حركة بهلوانية في الهواء وألقي بنفسه وسط أول ستارة ورقية لصقها علي باب غرفتي، تمزق الورق وسقط هو علي الأرض، توقعنا إصابته، القفزة كانت قوية، فإذا به يهزم توقعاتنا ويقوم ويكرر نفس الحركة علي باب الغرفة التالية، وهكذا حتي مزق الستائر الأربعة، ثم عاد لمكانه أمامنا وظل ينظر إلينا حتي سقطت دموعه.. !

-٦-

يقترب من عامه العاشر، ومع ذلك أتذكر يوم مولده كأنه بالأمس، بالنسبة لي الحدث كان جديداً، كنت في الصف الثاني الإعدادي وعائداً لتوي من المدرسة بعد المغرب، كنت دائماً ابن الفترة المسائية في المدرسة، وبمجرد دخولي شعرت بأن البهجة تملأ البيت، ورغم أنني أعلم أن أمي في شهرها التاسع إلا أنني لم أتوقع أن يكون وضعها سبب يدعو لكل هذه البهجة في بيت السعادة تجاهد كثيراً كي لا تذهب إليه.. !

رأيت أبي سعيداً، يضحك ويداعب كل من حوله، وهذا من المشاهد النادرة له تقريباً، أخبروني أن « الداية « وصلت وسمعت زغرودة من خالتي تؤكد السعادة، بالطبع سعدت معهم لماذا أنا سعيد..!

وضع أبي قُبلة علي جبيني وقال لي، سُحب منك لقب « آخر العنقود « ثم ابتسم من قلبه ،وأعطاني ورقة بخمسون قرشاً كاملة، تضاعفت سعادتي بسبب تلك الخمسون قرشاً، شعرت كأنني طير يحلق ويغرد في السماء، أنا الذي لم يري العشر قروش – مصروفه اليومي – منذ شهر تقريباً، أصبحت فجأة امتلك خمسون قرشاً ومعهم ابتسامة رضا من أبي، أنا امتلكت الدنيا بكل ما فيها، فبدون تفكير انطلقت إلي الشارع مبتهجاً، السعادة ساعدتني في الخروج دون أن يسألني أحد إلي أين أنت ذاهب ؟

ذهبت لعربة حمص الشام، وقلت لـ « عم شحته « كيس كبير من فضلك، قلتها بعظمة وكبرياء كأنني ملك متوج، أنا من يمتلك كيس كبير ويحمل في جيبه ثمن كيس آخر، خمسون قرشاً جعلوا الحياة في عينى بستان كبير لا

obeikan.com

نهاية له.

لم أعد للبيت مرة أخري، هذه فرصة لن تعوض، ذهبت لأصدقائي حيثما يلعبون الكرة، لابد أن يشاهدوا كيس حمص الشام معي، أعلم جيداً هذا الشعور، أن يأتي بشيء كحمص الشام ويقف كأنه يشاهد اللعب مع انه في الحقيقة يخرج لسانه لنا، شعور قاسي لكني سأفعله، ليتك تضعي مولوداً كل يوم يا أمي.. !

وقفت أمامهم أشاهد اللعب، الحقيقة أنا لم أشاهد شيئاً، وتعمدت أن أتحدث معهم تقريباً، كلاً علي حده، والكيس معي، وعندما تأكدت أنني مارست نفس الطغيان وأن قلبهم يشتعل مثلما اشتعل قلبي كثيراً ودعتهم وعدت للبيت.. !

***

عدت للبيت منتشياً بشعوران نادراً ما اجتمعا، البهجة في البيت للجميع، والزهو أمام أصدقائي، وجدت السلالم نظيفة والهواء معطر، وعلي باب شقتنا استقلبتنى زغاريد خالتي التي جاءت خصيصاً لهذا اليوم السعيد، شقتنا الضيقة لا أعلم كيف احتوت هذا الكم الهائل، أبي وأشقائي وزوجات أعمامي وصديقات أختي الكبيرة وخالتي وأبناءها، لكن فيما بعد أدركت أن السعادة حين تأتي تحتوي كل ما هو معقول أو لا معقول، السعادة كنز ثمين في بلاد كبلادنا التعيسة.

وبمجرد خروج خالتي من الغرفة الموجودة بها أمي وعلي وجهها الفرحة والزغاريد تسبقها، تهلل أبي وقال بصوت مرتفع « اللهم ولك الحمد، اللهم ولك الحمد «.

وفجأة انطلقت الأغاني من جهاز كاسيت قديم أدهشني انه وبهذه الحالة الواهنة قادراً أن يخرج كل هذه الأصوات ويساعد في صناعة البهجة، وبدأت أختي في الرقص وحولها كل صديقاتها وخالتي لم تتوقف عن إطلاق زغاريدها.

غادر أبي شقتنا ونزل الشارع وتجمع حوله أشقائه وتبادلوا عناقه ثم باقي

جيراننا وبات الشارع كأنه في عيد، وبالتالي كنت غارقاً في كل شيء مبهج حولي، أرقص مع من يرقص، وأغني مع من يغني..

ليتك يا أمي تضعي مولوداً كل يوم، وليتك تقف عند هذه الصورة يا أبي.. !

***

أمي تضع المولود السادس، فهل أبي مارس فرحته هذه بنفس القوة في كل المرات السابقة ؟ هل هذه الفرحة هي الشيء العادي لأب تجاوز الخمسين من عمره وله من الأبناء خمس منهم ثلاث ذكور ؟

قد تبدو الأسئلة غير منطقية لكني سألت نفسي، وأيضاً هربت من البحث عن الأجابات، كنت في أشد الأحتياج للفرحة، فتركت نفسي للسعادة.

وفي أقل من دقائق تحولت الفرحة لمهرجان، جاء « عم حسين العربجي » بحصانه الأبيض العجوز فرقص الحصان بمجرد سماعه للمزمار البلدي الصعيدي، وقهقه أبي تقريباً لأول مرة في حياته وهو يرتدي أمام كل الجيران في الحارة جلباب صعيدي جاء به عمي لتكتمل الفرحة ليصعد بعد ذلك علي الحصان ويستمر في الرقص والحان المزمار تطرب كل الموجودين، وخالتي من الشرفة مازالت تطلق زغاريدها..

أكثر أيام حياتي – بل اليوم الوحيد – الذي عشت فيه البهجة كما ينبغي، كان هذا اليوم، يوم مولد أخي الأصغر « فارس «.

obeikan.com

-٧-

رغم أنني لم أدرك لماذا فعل « فارس « ما فعله إلا أنني تعاطفت معه واقشعر بدني فور رؤيتي يبكي تتساقط – كم أنت نبيل يا فارس – وذهبت إليه ومددت يدي لتجفيف دموعه فارتمي في حضني وتجدد بكاؤه وجسدي مازال يرتعش.

امتعض وجه عمي « فايز « وقال بوجه صلب، من سيأتي معي للنيابة يستعد، نصف ساعة وسأذهب لهناك وانصرف.

وبمجرد توقف « فارس» عن البكاء قمت وقبلتهٍ علي رأسه فقبلني علي جبيني، وابتسم فابتسمت، وقبل دخولي لغرفتي حاولت نزع المتبقي من الستارة الورقية الموجودة علي باب غرفتي بعدما تمزق الجزء الأكبر منها أثر إلقاء نفسه عليها، فصرخ « فارس «، نظرت إليه، فقال اتركها كما هي، فتركتها، ودخلت الغرفة دون لمسها، فابتسم مرة أخري وابتسمت له.

شيء ما في علاقتي بفارس، تجعلني أكن له بحب حقيقي بخلاف كل أفراد الأسرة، أراه نبيل في زمن لا مكان فيه للنبل أساساً، كنت أراه أجمل ما في حياتنا – يكفي يوم مولده – رغم أنهم كانوا يغضبون منه لما يفعله بل أنني تأكدت انهم يشعرون به حمل ثقيل ولو أمكن لقالوا ذلك بشكل علني، ظروفه الذهنية والصحية كانت بالنسبة لهم حمل لا يُحتمل، أبي في لحظة من لحظات ضيقه الكثيرة قال ما أخجل من ذكره وأخاف أن أعيده، اعترض علي قضاء ربه ولعن كل شيء، سمعت أبي لسوء حظي حينما قال ذلك، غضبت منه، لكني لم أصرخ فيه ولن أتجاوز في كلامي معه، تراجعت حتى

obeikan.com

عن عتابه، مهما حدث فهذا أبي الذي لم ولن أجرؤ علي النظر إليه نظرة لا تليق مهما حدث، بعدها استغفر أبي ربه بصوت جهوري، وسمعته أيضاً، خفف ذلك غضبي منه كثيراً، وجدت أعذاراً لأبي المحاصر بهمومه وأشياءه المؤلمة.

***

قمت بتغيير ملابسي وانتظرت « حازم « و « حسام « كي نذهب مع عمي للنيابة، كنا قد اتفقنا علي أن تبقي شقيقاتي « رحاب « و « أمنية « مع أمي ومعهما « فارس».

ودعني « فارس» بابتسامة بريئة وقال لي : سأنزع باقي الورق.. !

لم أفهم أساساً لماذا وضعه ؟ ولماذا ألقي بنفسه عليه ؟ ولماذا رفض أن أنزعه ؟ ولماذا قال لي أنه سينزعه ؟ ولماذا ابتسم ؟!

تقدم عمي « فايز « ونحن الثلاثة خلفه والصمت يسود، تعجبت غياب باقي أشقاء أبي لكنني لم أسأل، كنت مع « حازم « و « حسام « في المقعد الأخير للميكروباص وعمي أمامنا، وبعدما قطعنا نصف المسافة استدار عمي ووجهٍ كلامه لنا قائلاً :

لا مجال هناك للدموع والحركات الصبيانية.

قال « حازم « – أخي الأكبر – بلهجة صارمة :

ولا مجال أيضاً لنصائحك، وفرِها لك، ربما تنفعك.. !

أعلم أن حازم لا يحب أشقاء أبي ولا يحترمهم، ولكن هذا لا يبرر له أن يتكلم معه بهذه الطريقة المهينة في عربة بها أربعة عشر فرداً.. !

فقال عمي منكسراً : كعادتك، مهذب وتعلم كيف تتحدث مع الأكبر منك.

فقال له : لست في حاجة لرأيك، أنا مهذب شئت أم أبيت.

وتتمتم « حازم « بشتائم سمعنا معظمها بوضوح، واعتدل « عمي « مرة أخري والنار تأكل وجهه، كان مشهدا مخزياً لا داعي له علي الإطلاق.

ما الذي حدث لك يا حازم ؟ وكيف فقدت كل اللياقة هكذا مرة واحدة مع

أقرب الناس لك ؟!

***

رأيت شعار العدالة عالياً ساكناً فوق مبني مجمع المحاكم والنيابات، الميزان بكفتيه، أسود اللون، أسود وتعلوه طبقات من الأتربة جعلته باهتاً، وقتها تمنيت أن أجد من أسأله، لماذا هو عالياً هكذا ؟ ولماذا أسود اللون ؟ ولماذا باهتاً..؟!

سألت لكني لم أجد من أوجه له السؤال، وحتي الآن لم أجد.. !

دخلنا الساحة مشدوهين، كانت أول مرة لي التي أري فيها هذا المكان، شعرت بانقباض قلبي دون أسباب، الأسباب ربما كانت واضحة لكني لم أر شيئاً ،مكان بائس لا يوجد فيه شيئاً واحداً يدعو للتفاؤل، مئات البشر في الطرقات، ومئات البشر علي السلالم، ومئات البشر أمام قاعات المحاكم المختلفة، ورائحة الظلم هي العامل المشترك في كل شيء تقريباً.. !

من أين أتوا هؤلاء الناس..؟ وما الذي حدث كي يأتي كل هؤلاء إلي هنا ؟ أيعقل ما يحدث..؟!

نساء مكبلات بالقيود، وشرطي يصفع صبي لمجرد اقترابه من السلك، وكوب شاي بثلاث جنيهات، ورائحة البول تطعن من دورات المياه كل المارين لكن لا أحد يُطعن، تزاحم وتحرش علي السلالم، ومصعد آلي أنيق وله حارسان ولا يستخدمه أحد، بكاء وأنين طفلان يتشبثان بجلباب أمهما المتهرئة والذباب الساكن علي وجههما.. !

أجواء يملأها الحزن، ووجوه كأنها خُلقت للشقاء والبؤس، أيعقل أن يكون هذا مكان تحقيق العدالة..؟!

نفسياً كنت في أسوأ حالاتي، ربما ما رأيته جعلني أشعر بحزن وانقباض فاق ما نحن من أجله في هذا المكان، صعدنا للطابق التاسع دون أن نشعر، في كل طابق وعلي كل سلم كان هناك ما يشغلني ويجعلني أغرق في متابعته، الضيق هنا يبتلع كل شيء، الظلم هنا سيد كل شيء والألم هو العنوان، هنا

يمكن أن تري الأوجاع تتحرك وتتحدث وتبكي.. !
لماذا يا أبي فعلت ما جعلني مجبراً علي المجيء إلي هنا..؟
لماذا يا أبي..؟!!

***

في الطابق التاسع تحدث عمي أخيراً وقال أن هنا مكتب وكيل النيابة الذي سيحقق مع أبي، كان عمي مازال غاضباً من حازم، وحازم كما هو لا يهتم ولا يحترم أحد، وقفنا هنيهة ثم تقدم عمي من الشرطي الواقف وسأله، هل بدأت التحقيقات ؟، تجاهله الشرطي واستمر في الانشغال بهاتفه المحمول، وكرر عمي سؤاله. فقطب وجهه وقال حينما يأتي الباشا نأتي بالمتهمين..!
صفعتني كلمة « المتهمين « المقصود بها أبي، نعم أبي بائس غاضب طوال الوقت لكنه شريف، لا شك في ذلك، قلت ربما هناك خطأ فيما يحدث، أيعقل أن يظل أبي شريفاً لمدة قاربت الأربعون عاماً ويتحول لسارق قبل خروجه للمعاش بأشهر قليلة، سارق !
كيف طاوعتني نفسي علي قول « سارق « قاصداً بها أبي، ومن أين جئت بها ؟
حتى هذه اللحظة لم يقل لنا أحد ما هو سبب القبض علي أبي ؟
حتي أنا أتهمتك يا أبي ولصقت بك الصفة دون تحقيق..!
السماح يا أبي من فضلك..

***

بالطبع لن يجرؤ أحد علي طرح أي سؤال آخر، إذاً ليس لدينا اختيارات سوى الانتظار، وما أسوأ الانتظار في مكان مؤلم كهذا ؟
سيتضاعف الألم وسأكون مجبراً علي مشاهدة المزيد من الصور القاتلة الموجودة في كل طابق من التسع السابقين، وبالفعل بدأت أهيئ نفسي للانتظار والألم، لكني لم أنتظر طويلاً، أقل من دقائق ووجدنا زملاء أبي معنا، جاءوا يشاركوننا الانتظار والاطمئنان علي أبي، فرحت لرؤيتهم، جاءني أمل كنت أحتاج إليه وإن كان غير مبرر، كدت ابتسم لكني تراجعت، المكان

والظرف لا يحتملان، وسرعان ما انقبض قلبي.

« عم بيومي « كان معهم.

ارتعش جسدي فجأة وامتلكتني رجفة لا أعرف مصدرها، اقترب مني « عم بيومي « وقبل أن يتحدث معي، كنت قد فقدت الوعي وسقطت مغشياً علي.. !

obeikan.com

obeikan.com

-٨-

بعد ساعات كنت غائباً فيها عن الوعي، وجدت نفسي في فراشي وحولي أشقائي يطمئنون علي، الحزن كان يعصف بي، متي ستتركني لعنة « عم بيومي « ؟

ما يقرب من عشر سنوات ومازلت أرتعش وأغيب عن الوعي لمجرد رؤيته.. !

ومن هذه اللحظة تحديداً قررت الثورة علي هذه الحالة، لا أريد أن أبقي جباناً هكذا، ألا يكفي أنني كنت جباناً منذ سنوات طويلة..؟!

سقطت من عينى دمعة شاردة لا أعلم من أين جاءت ؟

هرولت « أمنية « نحوي ومسحت وجهي بيدها الناعمة، لم أستطع الابتسام في وجهها، لكنها لمست شتاء خوفي وضعفي بشيء من دفء حنانها الصادق الصامت.

تعتقد أن دموعي سقطت لأنني مريض، لكن الدموع سقطت لأنني جبان، سقطت لأنني ضعيف، تنهدت متألماً، ومنعت سيل جارف من دموع ينتظر حالة ضعف جديدة لينهمر.

كنت في حاجة للصراخ، للبكاء، للمواجهة، لكني ارتاح دائماً في الهروب..!

لماذا لا تذهب وترحمني من عذابي ؟

لماذا لا تموت يا « عم بيومي « ؟!

***

ربتت « أمنية « علي كتفي وجلست بجواري لكنها لم ترفع عينيها نحوي، كانت منكسرة مثلنا لكنها كعادتها تلتزم الصمت، سألتها بصوت واهن : أين

obeikan.com

أبي ؟

تجاهلت السؤال كأنها لم تسمعني، كررت السؤال، فقالت أن وكيل النيابة قرر استمرار حبسه أربعة أيام حتي استكمال التحقيق.

لا أعلم لماذا تقبلت ما قالته دون صدمة، كأنني كنت أتوقع حدوثه أم أن الأجواء المحيطة كانت ومازالت تحوي بأن الوضع السيئ سيزداد..؟!

زاد الصمت عن الحد المحتمل وتحول البيت لجحيم لا يطاق، أمي علي فراشها ورحاب بجوارها، وأنا علي فراشي وأمنية بجواري، وأبي سجين دون أن تعرف لماذا..؟!

قلبي كان يتمزق، كنت أود أن أقول لأمنية اتركيني وحدي من فضلك، لكني خشيت أن تغضبها كلماتي، فاستسلمت للصمت المؤلم حتى قطعه صوت ناي حزين يملأ البيت.. !

فُزعت أمنية وهرولت خارج الغرفة وأنا خلفها، وكان ما توقعته..!

***

فارس يجلس نصف عارياً يعزف علي ناي خشبي صغير نغماً يملأه الشجن..

وقفت ومعي رحاب وأمنية نشاهده والتعجب يعصف بنا، من أين جاء فارس بهذا الناي ؟ وكيف تعلم العزف بهذه المهارة..؟!

المفاجأة كانت أكبر من استيعابها، فارس ملأ البيت بشجن كان يحتل قلوبنا، فبكت أمنية ورحاب وأنا أشاهدهما فقط !

ليتني مثلك يا فارس قادراً علي المواجهة.

تصاعد الصوت وانتبه له كل من في البيت وخارجه ،فآتي حازم الجالس أمام البيت في الشارع منذ عودته من النيابة ووقف أمام فارس وشاهده والغضب يملأ أنفاسه، صرخ فيه وأمره بالتوقف، لم يتوقف فارس واستمر العزف، كرر ما قاله، وكرر تجاهله، فركله حازم بقدمه، فسقط الناي من يده لكنه ظل جالساً، أمره بالنهوض والدخول لكن فارس ظل متجاهلاً لكل ما يقوله، فاستشاط غضب حازم وركله مرة أخري بعنف في بطنه العارية، فصرخ فارس

وتأوه واندفعنا نحوه نطمئن عليه، وانفعلت رحاب وشتمت حازم، فنكس رأسه وعاد من حيث أتي.. !

obeikan.com

obeikan.com

-٩-

أين ذهب قلبك الطيب يا « حازم « ؟ وكيف تمكن منك الغباء لهذه الدرجة ؟ أين مبادئك وأخلاقك ؟ وأين وداعة روحك ورحابة صدرك ؟ وأين حازم الذي كان قدوتي ومثلي الأعلي أنا وكل أفراد الأسرة والحي بأكمله ؟

أين حازم الذي كان يعمل وهو لم يتم السادسة من عمره ليشارك في مصروفات البيت ؟ وأين الذي كان لا يستطيع رفع عينيه خجلاً ؟ وأين الذي كان يبكي لمعاناة حيوان ضال في الشارع ؟

أين الذي ظل سنوات يجاهد ويشرح أهمية الحرية ؟ أين المثقف الذي صنع بعرقه مكتبة ضخمة قرأ كل ما بها ؟ أين حازم الذي أبهر الجميع بثوريته وروحه الحرة ؟ أين ذو الصوت الحنون ؟ أين حازم المؤمن الحالم ؟ وأين تاريخك ؟ وأين عدلك ؟ وأين أنت يا حازم ؟

من فضلك يا أخي، قل لي، أين أنت ؟

ماذا فعل بك السجن لتصبح جلاداً هكذا ؟ هل التعذيب هو من منحك القوة لتركل أخيك الأصغر في بطنه ؟ هل كفرت بالحرية أيها المناضل ؟

من نزع من قلبك الرحمة ؟ ومن جعلك هكذا..؟!

لابد أن تجاوبني يا حازم لأنني أحبك..

أحبك وقلبي بسببك يبكي، البكاء يا أخي مرهق ومؤلم، بكاء بدون دموع يا حازم، أرجوك حاول ان تشعر بي..!

قدمك تركت آثارها البغيضة علي بطن أخيك الأصغر يا حازم، الأفضل أن أقول الآن مثلما كنت تقول أنت، عندما تعجز عن المواجهة اتركهم للأيام

والتاريخ، لكني لن أقول، لا أتمنى أن تجابه الأيام والتاريخ يا أخي، لن تقوي عليهم.. !

أنا رأيت قلبك الأبيض قبل تلوثه، ومن قلبي سأدعو لك بالعودة، أنت يا حازم بطل ولست جباناً لا قيمة له مثلي.

أنا مازلت أحبك يا حازم.. !

***

فجأة وجدت طرقات عنيفة علي الباب، لطمنى الرعب مرة أخري، أصبحت أخاف هذا الباب، أيها الباب الخشبي أرجوك كفي.. !

متي ستؤدي دورك وتتحمل عنا ؟ من خلفك ؟ وأي كارثة جاء بها..؟!

استمر الطرق علي الباب وأنا متشبث بالظلام لم أغادر غرفتي، خوفي كان قد تملك مني، خوف لدرجة أنني لم أستطع مغادرة غرفتي وجُبن لدرجة أنني راضياً أن يواجه أشقائي كارثة جديدة وأنا مختبئ علي بعد خطوات منهم.. !

أنا العار ذاته.. !

تكرر الطرق قبل أن يُفتح الباب، تمالكت وكتمت أنفاسي وأطلقت العنان لأذني كي تلتقط بدقة ما سيدور، اختلطت الأصوات، وظهرت ملامح ابتهاج، زملاء أبي جاءوا معاً وتحدثوا معاً أيضاً فلم يتضح شيء، لكن بعد فترة من التخبط قال أحدهم أن أبي سيخرج صباحاً من الحجز، تعالت الأصوات مرة أخري وتكررت « الحمد لله « عشرات المرات، وعلي ما أعتقد كان المتحدث « عم صبري « زميل أبي، قال مبتهجاً أن النيابة انتهت من التحقيق وتوصلوا أن أبي بريئاً وسيخرج باكراً، وأول ما جاءهم الخبر جاءوا مهرولين يبشروننا.

أخيراً جاءت لنا بهجة – ولو مؤقتة – سكنت روحي وكنت علي وشك الخروج ومشاركة أشقائي فرحتهم، لكنني لم أستطع، خشيت أن يكون معهم « عم بيومي « فارتعش واسقط فاقداً للوعي.. !

obeikan.com

-١٠-

لحظة وصول أبي للبيت كانت أشبه بعودة الروح لإنسان ظل يحتضر وفجأة عاود الحديث ونهض لممارسة حياته الطبيعية، كنا ننتظر هذه اللحظة فلم يقترب أحد من النوم طوال ساعات الليل، كانت هناك نشوة ليست عادية تسري في أرجاء البيت الذي احتلته الأحزان أياماً.

قامت أمي وتحاملت علي نفسها رغم مرضها، رأينا الحياة تعود في وجهها المنهك، سعدنا بتعافي أمي وإصرارها علي استقبال أبي بنفسها وإعداد الطعام له، مازالت أمي تعشق أبي بشغف يظهر جلياً رغم كل شيء !

كل هذه السنوات لم تنل من إخلاصها شيئاً، أمي المثال الذي لا مثال له.

جاء أبي بعد التاسعة صباحاً بقليل ومعه « عم صبري « و « عم بيومي « و « عمي فايز « و « حازم «، فضلت الاختباء بغرفتي تحسباً لمجيء « عم بيومي « وقد كان، لو رأيته وسقطت فاقداً للوعي لأفسدت علي الجميع فرحة خروج أبي، لذا كان الاختباء هذه المرة فضيلة، وسعدت لمجرد شعوري بأن ما أفعله تضحية من أجل سعادة الآخرين، لا أعلم هل تجاهلت أن ما أفعله أساساً من الخزي والجبن أم أنني كنت أكذب علي نفسي باحثاً عن مبررات واهية أمام ضعفي وعدم ثقتي بنفسي..؟!

عندما وجدت نفسي انزلق لمثل هذه المناقشة المريرة مع ذاتي انتبهت لصعوبة الناتج عنها من أثر نفسي سيء، فابتعدت عن المناقشة – أنا أكرهك يا ذاتي المتخاذلة – وشرعت في عمل أشياء لا أهمية لها كي تكون سبباً لتأخري في الخروج واستقبال أبي، لكنني كنت متابع لما يحدث بشكل جيد.

الفرحة في نفوس الجميع جعلتهم غير منتبهين لعدم وجودي، رأيت « فارس

Oboeikan.com

« وهو يجري – وهذا شيء نادر الحدوث – ويرتمي في أحضان أبي، بصعوبة استقبله وبصعوبة رسم أبي ابتسامة لابد منها.. !
ودقائق وانصرف « عم بيومي « ومعه باقي زملاء أبي، فتنفست الصعداء وأسرعت بالخروج، وانتظرت دوري في السلام علي أبي، تعلق « فارس « به وانشغاله ببكاء « أمنية « أتاح لي فرصة رؤية أبي، شاخ أبي في يومين، ما كان يحمله وجهه أبي ليس إرهاقاً أو آثار لقلة النوم كما قال وكما اقتنعوا، وجه أبي كان يحمل إهانة تعرض لها وانكساراً يحاول مداواته وأعتقد انه لن يجد دواءه، كانت عينيه تحمل هزيمة واضحة لا أعلم كيف لم يراها أحد..؟!

***

وبعدما احتضنت وقبلته، قلت ليتني لم أنظر إليه، وليتني ما تمعنت في تجاعيده، لقد أكد لي صحة كل شيء رأيته، وبمجرد ظهوره أمي قام نحوها وقبل يدها وبكي..!
الحدث كان عظيماً لم يتوقعه أحد، أبي الصامد دائماً صاحب الوجه الصلد يبكي !
كانت مفاجأة اهتزت لها أركان الجميع، لم يري أحد من قبل أبي يبكي مهما حدث.
هل كان فعلاً صلداً قوياً طوال عمره، أم أنه كان يقوم بأداء دور لابد منه ؟
هل انهزمت فعلاً يا أبي ؟ هل سقطت كل المتاريس ؟
ليتني ما خرجت من غرفتي، ليتني لم أعش حتي أري لحظة انكسارك يا رمز القوة، ما الذي فعلته يا أبي كي تجعلهم يكسروا روحك هكذا..؟
ما الذي حدث لك خلف القضبان.
ما الذي جعلك تبكي ؟
ما كل هذ الوهن ؟!
اللطف بعبادك المتألمين يا أرحم الراحمين..

***

Obeikan.com

نال الصمت منا في دقائق ما ناله الألم في أيام، أيام اعتقدنا انها انتهت.
نهض أبي متثقالاً وهو في طريقه لغرفته، وأمي تسانده وتربت علي كتفه حتي أوقفته كلمات حازم الغاضبة..
أليس من الأمانة أن تروي لأبناءك لماذا قبضوا عليك ؟
توقف أبي وبمشقة استدار لينظر لحازم وقال له : ومتى أخفيت عنكم شيئاً ؟
إذاً فلتقل لهم، قل لهم لماذا قبضوا عليك ؟
أنت غير محترم
غير محترم لأنهم قبضوا علي بتهمة سرقة مخزن أنا المسئول عنه أم غير محترم لأني أطالبك بأن تقول لأبنائك الحقيقة ؟!
أنت غير محترم لأنك جاحد وظالم، أنا أشرف إنسان في الكون يا حقير.. !
القضية مازالت أمام النيابة.
أنا أشرف إنسان في الكون يا حقير.
خرج حازم من البيت بعدما كرر أبي جملته الأخيرة وكاد أن يبكي وهو يقولها، وللمرة الثانية في دقائق أري أبي ينهزم ويتساقط، ولم يستطع أن يكمل السير لغرفته فجلس مرة أخري يداري وجهه بيده ونحن خلفه.. !
حاصرنا الصمت مرة أخري، فلم يكن أحداً منا يجرؤ علي الحديث، وفجأة انتهبنا لصوت « فارس « يتمتم بكلمات غير مفهومة، فتوجهت أنظار جميعاً إليه.
وقف « فارس « علي منضدة صغيرة وأصبح أمام البراويز الستة التي تجمع كل افراد العائلة، وظل يظلل وجه « حازم « باللون الأسود، أفزعنا « فارس « بما يفعله لكننا لم نتحدث ونهض أبي ورأي ما يفعله « فارس « وبكي.. !

obeikan.com

-١١-

لا تظلم حازم.

هذا « حازم « آخر لا نعرفه.

أعتقد انه أيضاً لا يعرفه..!

حازم – الذي نعرفه – المثال الحي للإنسان في بلاد لا تعرف الإنسانية ولا تعترف بها، زهرة تغلبت علي كل مظاهر القبح والخراب وأصرت علي الخروج..

منذ نعومة أظافره وهو مجاهد مناضل، هو الابن الثاني لأبي بعد « رحاب « وأول الذكور. مجيئه كان في عصر ذرات الهواء فيه لا تتكون الإ من الزحام والضيق والفساد ولكنه تعلق بالحياة الكريمة وكرس حياته للبحث عنها.

ومبيضاً للمحارة منذ السادسة من عمره، الآن – بكل آسف – عاطل عن العمل، عاطل يصرف له مرتب نهاية كل شهر، وحسب ما نعرف انه هو من طلب مرات من أبي كي يسمح له بالعمل مع « عم نبيل « الذي يسكن معنا في نفس الحارة، بنيانه القوى سهل له تنفيذ رغبته، اقتنع أبي ورحب « عم نبيل «، وظل حازم لمدة سنوات كل عمله عبارة عن حمل العدد والأدوات وعمل الشاي وتنظيف مكان العمل بعد انتهاؤهم، وسارت الحياة هكذا في سهولة ويسر، فلم تتأثر حياته الدراسية بسبب عمله وظل يجاهد حتى انتزع دبلوم المدارس الفنية الصناعية – قسم لحام – بعدما أصبح الساعد الأيمن والأهم لعم نبيل، وذاع صيته كصنايعي ماهر وأمين وأدي ذلك لفخر أبي به من جهة وتفرغه لباقي أفراد الأسرة من جهة، وماديا كانت مساعدات

حازم تكاد تساوي مرتب أبي الضئيل الذي يتقاضاه من وزارة الصحة.

نشأت علي هذه المشاهد الحميمة بين حازم وأبي وأمي، كنت – ومازلت – معجباً، هدوئه، التزامه بالصلوات في المسجد، شهرته، عمله، ثقافته، ونظرة أبي وأمي له.

وعندما بدأ حازم في إعداد مكتبة خاصة له، كنت في المرحلة الإعدادية، كانت متواضعة للغاية، عدة أرفف خشبية مثبتة بمسامير صلب علي حائط الغرفة لكننا أطلقنا عليها لفظ « مكتبة «.. !

بدأ حازم يقرأ ويشتري كتباً، لم أكن أحب القراءة معتقداً أنها من نفس نسل الكتب الدراسية وما بها من قلق وإهانة ومعاناة لكني كنت أحب ما يفعله حازم، كان يجلس بالساعات يقرأ ويدون، كنت أقرأ عناوين الكتب دون أن أفهم شيء، الآن فهمت بالطبع، وليتني ما فهمت شيء.. !

***

نجح حازم أن يفرض نفسه علي الجميع، صار له أصدقاء مثقفون مثله، وبدأت ملابسه تتحول لبدل رسمية معظم الأوقات، كانت بدل أنيقة رغم أنها مستعملة أو جديدة رخيصة الثمن، بهاء « حازم « كان يخترق أي شيء، حتي وهو عائداً من عمله « كمبيض محارة « كان وجهه يشع ضياءً وجمالاً.

الآن أنطفئ حازم، لذا أقول أنه حازم آخر لا نعرفه.. !

في الحقيقة لم أتذكر مرة أن أبي تحدث مع حازم وسأله عن حياته أو نشاطه أو مستقبله، كان حازم الشيء الباسم في حياة أبي المتعثرة، ظل يعمل ويتأنق ويساعد أبي في تحمل معظم مصاريف البيت ودروس باقي أشقائي ويصلي في المسجد، فلماذا يسأله ؟ ولماذا يحاول أن يحاصره..؟!

لا يحق لأحد محاصرة أحد، أنا أؤمن بذلك، الحصار ضد الحرية، الآباء يمزقون أبناؤهم باهتمام زائف مبالغ فيه، يخدعهم ذكاؤهم الباهت أساسا أنهم يمتلكون مفاتيح مستقبلهم لكن الحقيقة انهم يمارسون ديكتاتورية صامتة تنم عن جهل، يقتلون الإبداع والحرية والكرامة والكبرياء باختيار المدارس

والجامعات ونوعية الدراسة ونوعية الأصدقاء، الآباء يكرسون الاستبداد، الآباء متهم أول، حسن النية والخوف من تقلبات الدهر لا يغفر لهم إصرارهم علي خلق نسخ مكررة من بشر كل ما فيهم مجرد تجويف، مجرد لقب أو مهنة يسعي إليها، الأمان الحقيقي في الحرية والإيمان.. !

أبي بكل تأكيد لم يأت شيء من ذلك في ذهنه، أبي مستبد طاغية مثلهم، لكنني أراه تفوق علي كل هؤلاء الآباء في صناعة ابن صالح ناضج أفاد أهله ووطنه، أبي – مثلنا – بدأ يسمع عن شهرة « حازم « من الخارج، توغل حازم في القراءات توغلت الكلمات والأفكار والمبادئ فيه، نضج حازم وبدأ يلقي المحاضرات في ندوات صغيرة ينظمها الحزب المعارض الذي أنضم إليه مؤخراً، لم ينزعج أبي من كلمة « حزب معارض «، ربما لأنه لم يدرك أن هذا شيء خطر، وربما – وهذا الأقرب – لتأكده أن لا يوجد في بلادنا شيء بهذا المسمي.. !

***

بعد ذلك أنشئ « حازم « مدونة له علي شبكة الأنترنت باسم « المشاغب « ظل يدون بها كل آراؤه ومواقفه، اشتهرت المدونة واشتهر حازم، فأصبح من الضروري أن يشتري جهاز كمبيوتر خاص به في البيت، شهرة حازم نالت كثيراً من تركيزه في عمله، كان يحدثني عن ما يكتبه وما يحدث، كانت كلماته أكبر من استيعابي لكنني كنت أتظاهر دائماً بالفهم والاهتمام، بالتأكيد ما يقوله حازم هو الحق، كنت فخوراً أنه أخي الأكبر، لا، بل ومازلت أفتخر.. !

كل شيء يحدث كان يدعو للبهجة وإن حدث ما لوث كل هذا النقاء، ففي يوم ليس له لون، تم اقتياد « حازم « لقسم الشرطة وهو في طريقه للبيت بعد انتهاء عمله، من رآه جاء وأخبر أبي، صعق أبي وذهب للقسم. وهناك أخبروه أنه بخير وأن الموضوع مجرد تشابه ليس إلا وسيخرج حالاً، الحقيقة لم تكن تشابه أسماء أو غيره، كان حازم قد قام بحملة ضارية علي السيد مأمور القسم علي مدونته واستعانت أكبر صحف المعارضة انتشاراً بكلمات

حازم وبات الموضوع صاخباً فرأي السيد المأمور انه من الأفضل أن يشرح لحازم الحقائق بنفسه وشرحها بالفعل.. !!!

obeikan.com

-١٢-

هذا الحدث الهين أفسد فرحتنا بقدوم « فارس « وأعادت أبي بائساً كئيباً بعد يومان فقط من البهجة وبعدها ظل حازم لثلاثة أسابيع راقداً ذابلاً لا يتكلم مع أحد والقلق يعصف بنا، أتذكر جيداً ما حدث في ذلك اليوم – الذي مازال يصعب علي وصفه – من أحداث أوجعت قلوبنا، فبعد ساعات قضاها حازم داخل قسم الشرطة وذهب أبي ومعه محام زميل له وعمي « فايز « ليتسلموا « حازم «، لا أعلم تحديداً ما قاله المأمور لأبي لكني توقعته من سياق الكلام الذي لا يمل أبي من تكراره.

عاد أبي خائر القوى ومعه حازم، وصفت أبي هكذا لأنني رأيته حقاً هكذا، مجرد صورة تقف لأبي الذي أعرفه، أبي كان باهتاً ضعيفاً بالكاد يقف محافظاً علي اتزانه، الأزمة هنا أن أصف حال « حازم « وقتها، إذا كان أبي خائراً القوى، فمن أين آآتي بكلمات تصف حازم ؟!

لكني رأيت حازم قوياً، مازلت متأكداً أنه كان قوياً وقتها، دخل أبي صامتاً وظل حازم علي الباب بعدما أشار أبي له بيده ألا يدخل، وقد كان.. !

ثمة دماء كانت تزحف من فم « حازم « لكنه كان مبتسماً، رأيت هذه الابتسامة صموداً راقيا، وأبي رآها استفزازاً وإهانة له واستهتار بخطورة الأمر، أحزنني أن أبي يتعمد إهانة حازم، وقتها لم أدرك ما هو الجرم الذي بسببه حدث ويحدث كل هذا..؟!

حازم أطهر إنسان يعيش علي سطح الأرض من وجهة نظري، أبي ظالم لا يحق له ما يفعله، وقسوته غير مبررة وأسلوبه لا يُحتمل، تحملت بصعوبة ما

يحدث حتي جلس أبي وقال بصوت تمكنت منه القسوة :
أمام أمك وأشقاءك، إن لم تعد كما كنت، أنت لست ابني ولا مكان لك في بيتي.
صُعقنا جميعاً من قوة الجملة، كانت مفاجأة صادمة، لكننا لم نجرؤ علي التفوه ولو بصوت، لم ينظر « حازم « لأبي فكرر أبي الجملة، واستمر الصمت أو تجاهله لتهديده، وعقب انتهاءه من تكرار وعيده صرخ « فارس « صرخة لا تناسب عمره – يومان فقط – فأفزعت أمي التي قامت بصعوبة كي تري هذا المشهد المؤلم، قامت أمي لتعود لفارس ومعها رحاب وبمجرد قيامهم سكت فارس فاندهشنا، فاستكمل أبي :
أتظن نفسك حامي حمي الديار..؟! أتظن نفسك شيء أيها الحقير..؟!
فصرخ « فارس « نفس الصرخة المفزعة.. !!!
***
وأخيرا تحدث « حازم « ثابتاً :
لست حامي حمي الديار يا أبي، ولا أظن نفسي شيئاً، لكنى لست حقيراً..
لم يدع « فارس» فرصة لأبي ولنا لنستوعب رد حازم الجميل، فضحك وهو علي يد أمي، ضحكة أيضاً لا تناسب عمره فاندهشنا من جديد، الأمر كان عجيباً .. !
لكن غضب « أبي « ظل كما هو فقال :
لا، أنت حقير.
فصرخ « فارس « صرخته المفزعة مجدداً، وهنا كان لابد من التوقف، فالأمر عجيب للغاية، يتحدث أبي غاضباً فيصرخ « فارس «، يتحدث حازم فيضحك علي الفور.. !
ما الذي يفعله فارس..؟!
إلي الآن لم أتوصل لشيء..
لكن أبي لم يتوقف وأكمل تهديده قائلاً :

هنا في بيتي، لا يوجد شيء من هذه الأوهام، لا شيء من هذه المهازل التافهة التي ترددها أنت وأمثالك من ديمقراطية وحرية، إن كنت ستستمر في الجري وراء هذه الأوهام اخرج قبل أن تدخل بيتي، أنا لن امتلك ابن يجلب لي المهانة.. !

فعاد « فارس « لصرختة المفزعة، فاهتز أبي وارتبك وغادر البيت، وابتسم « حازم « ودخل واحتضنته أمي وضحك فارس من جديد.. !

obeikan.com

obeikan.com

-١٣-

ثلاثة أسابيع أو أكثر مرت علينا دون ابتسامة، ابتسامة ولو ضلت الطريق، حازم أسير فراشه وحزنه، وأمي قلقة عليه، لا يتكلم ولا يخرج إلينا، والطعام نادراً ما يتناول منه شيئاً.

الغريب أن طوال هذه المدة رفض حازم إضاءة غرفته، كانت ليلاً ونهاراً مظلمة !

كنت كلما فكرت فيما يشعر به أجد نفسي أهرب من التفكير، هل من الممكن أن تكون بداية عقدتي النفسية من هذه الواقعة ؟ هل نفسي الضعيفة ولدت في هذا الموقف أم في موقف « عم بيومي « ؟!

بالتأكيد لن أستطيع الجزم، لكني كالعادة أتذكر خنوعي وضعفي، أخي الأكبر وقدوتي وأكثر من أحببت ملازماً للفراش لأنه تعرض لإهانة وربما تعذيب لأنه كتب عبر مدونته يبحث عن الحق.

سمعت بعض مما يكون قد تعرض له وتوقعت ما قد يكون أسوأ، أشفقت علي حازم كثيراً، كنت أبكي عليه، أتذكر البكاء جيداً، أتذكره لأنني أتمناه الآن ولا أجده، لكنني لا أتذكر أنني غضبت من إهانته !

لم أتخيل نفسي منفعلاً غاضباً أنوي الفتك بمن ألحق بنا الضرر، رد الفعل لم يزر خيالي قط، كنت – ومازلت – الأبن الوفي للخنوع، هذا شيء يقتلني، أنا أتمزق وأنا أعترف بذلك، لا تتوقع أنني أقول ذلك بسهولة، أنا أموت، وأموت بذل بالغ، كرهت ضعفي وهواني.

أنا كرهت نفسي كرهاً حقيقياً...

تخيل أن ضعفي مازال يلازمني حتي هذه اللحظات وأنا أعترف لك الآن،

Obeikan.com

أفكر جدياً في الهروب، لكن إلي أين ؟!
أجد نفسي بدأت أتحدث عن ضعفي ومواقفي فأذكر ذاتي بضرورة الهرب، والمؤسف أنني أحياناً لا أحتاج أن أتذكر، أحياناً أهرب قبل البدء حتي، أقول من الأفضل أن أتكلم عن الأحداث دون الخوض فيما يدور بداخلي، أنا هزائم متكررة تسير علي قدمين، أنا من الذي جعلني أتكلم أساساً..؟!
أنا أقدس الصمت، الصمت يحتويني مع ضعفي، أحياناً يجعلني أرتدي زيفاً رداء الحكمة، وأحياناً يأخذني بعيداً عن مشكلات قد تجذبني، وأحياناً يدفع عني كره أستحقه.
الصمت خليلي الأمين، لكني رغم كل ذلك أمقته، ألعنه، أتمنى لو أصبح قوياً فأقتله، الصمت هو الوجه الآخر للخوف، وبوابة الجبناء، ودولة المقهورين، وللأسف أن هذا الوجه وهذه الدولة وكل الجبناء..!!!

***

ولأنني كل ما سبق، لم أجرؤ مثل باقي أشقائي علي محاولة الدخول لحازم والحديث معه، كلهم – باستثناء أبي – حاولوا الدخول إليه والتحدث معه والاطمئنان عليه، ثورة حازم كانت عارمة خاصة مع محاولة أمي إضاءة الغرفة وفتح النافذة، تحول حازم وقتها لكائن لا أعرفه، خرجت أمي باكية وكنت واقفاً أشاهد ما يحدث.
أغلق حازم كل شيء، إضاءة ونافذة وقلب وعقل، بالطبع أخفي الجميع عن أبي ما حدث، وبعدها بأيام حاولت أمنية ثم رحاب ثم حسام وكلها انتهت بنفس النتيجة.
أنا كنت غارقاً في ضعفي ولم أستطع حتي الاقتراب من باب غرفته، كانت أيام المرارة فيها تملأ أركان بيتنا حتي تعافي « حازم « نوعا ما بشكل طفيف.
رأته « أمنية « يقرأ كتاباً وهي تقدم له الطعام، وخرجت مسرورة تبلغ أمي، فتهلل وجهها الصامد، وقد كان، بعدها بأيام أضاء حازم الغرفة وخرج ليتوضأ وعاد للصلاة، فرحت كفرحتي بمولد « فارس «، وبعدها وجدتني أمام غرفة

حازم، طلبني للجلوس معه، أنا فقط، رفض الحديث مع أمي ورحاب وأمنية وحسام وأبي لكنه طلبني للجلوس معه!

ارتجفت وقتها رغم سعادتي، أيعقل أن « حازم « يود إحراجي ومواجهتي بعدم مساندتي له والسؤال عنه، أيعقل رؤيته لما بداخلي من خوف..؟!

ورغم عدم إمكانية طرحي لهذه التساؤلات أو حتى محاولة الإجابة عنها، جلست أمام حازم سعيداً مبتهجاً لكني محاصراً بحالة رهبة لم أري مثلها منذ ميلادي حتي الآن.. !

***

ابتسم حازم وربت علي كتفي وقال بصوت واهن :

كيف حالك ؟

سعيد أنني أجلس معك..

الامتحانات تقترب، تستعد لها ؟

نعم.

لماذا ؟!

ارتبكت ورجحت أنني سمعت ما قاله حازم بشكل مغلوط، أيعقل أن يسألني لماذا تستعد للأمتحانات ؟!

فقلت له : ماذا تقول ؟

فعاد بنفس سؤاله الغريب : لماذا ؟

كي أنجح.

لن تنجح !

ملأني التعجب، لماذا يقول حازم أنني لن أنجح.. ؟!

فقلت : لماذا ؟

لأنه لا ينجح أحد.. !

وقتها توقفت منزعجاً، قلت بالتأكيد حازم أصابه مكروه مس عقله، ما الذي يقوله هذا ؟!

obeikan.com

قلت : لكني نجحت العام السابق وكل زملائي نجحوا.. !

فقال : وهذا السقوط الكبير.

ما الذي يقوله « حازم «، انقبض قلبي خوفاً عليه، أيكون أصابه الجنون ؟

فقلت بلهجة جدية : ماذا بك يا حازم ؟ ما الذي تقوله ؟ أغلبية الطلبة ينجحون.. !

فضحك حازم بعدها، ضحكة جعلتني أطمئن عليه، واعتدل في جلسته وقال بهدوء :

أتعتقد أن أخالك الأكبر أصابه الجنون..؟!، اطمئن أنا بخير، السجن لم يصيبني بمكروه، أنا فقط رأيت أشياء لم أتمكن من رؤيتها في الشارع.

أقول لك أن النجاح هو الرسوب، لأنني لا أتمناك مجوف، ولا أتمنى أن أراك نسخة جديدة من الؤمنين بأن الحياة كرب، والناس إن لم تخنها ستخونك، وأن المجتمع فاسد ولا يستحق أن حارب من أجله، أريد رؤيتك إنساناً، هل تفهمني..؟!

تركت حازم وخرجت دون أن أودعه أو أتحدث إطلاقاً، بالطبع لم أفهم شيء وقتها.. !

obeikan.com

-١٤-

تجاوز « حازم « في حديثه مع أبي، وما فعله « فارس « فيما بعد بالشطب علي وجه حازم في الصور، ثم بكاء أبي، كلها أشياء أفسدت فرحتنا بخروج أبي.

أعتقد أن الخوف ضرب قلوبنا في هذه اللحظة مرة أخري عندما دخل أبي صامتاً واهناً ونام دون أن يأكل أو يبدل ملابسه.. !

ظلت أمي ومعها كل قلوب الأسرة – عدا أنا – قلقة لم تهدأ حتى خرج أبي في الصباح مبتسماً – علي غير عادته – واحتضن « أمنية « وداعب أمي، فعاد الأمان بعض الشيء للأسرة المكلومة منذ أيام.

جلس أبي وأمامه إفطاره الذي يحبه من يد أمي، كان رائقاً هادئاً وكأن شيئاً لم يكن وقال مبتسماً :

« حدث خطأ كبير في دفاتر المستشفي، غالباً الخطأ مقصود، لكن بفضل الله ظهرت الحقيقة، واحتجازي والتحقيق معي كان سبب هذا الخطأ، لكن بعد اكتشافه وظهور الحقيقة، اعتذروا لي وخرجت. «

لم يساورني أدني شك أن أبي يكذب، لم أتردد في الحكم عليه، الكذب يملأ وجهه ويفضحه، حزنت لأن أبي يكذب، وبهذه السذاجة، الغريب أن أمي وأشقائي صدقوا أبي أو كانوا يريدون تصديقه، لكني فضلت أن أراه وهو يكذب، ويمثل دوراً باهتاً لم يقنعني..!

أكان من المفترض أن يكذب بشكل احترافي حتي أصدقه ؟ أم من المفترض ألا يكذب من الأساس ؟

حاصرت نفسي بالسؤالين والألم الناتج عنهما، واخترت الهروب كعادتي.. !

خرج أبي بعدما انتهي من إفطاره ووصلة كذبه، لم يقل لنا إلي أين هو ذاهب، ولم يسأله أحد، وعلي هذا المنوال ظل أبي لمدة خمسة أيام كاملة بنفس السيناريو تقريباً، يستيقظ من نومه صباحاً بعد موعد عمله ويتمهل في إفطاره ويبتسم ويتحدث كثيراً حتى خروجه إلي أن يعود مرة أخري عقب صلاة العشاء.

كنا بالتأكيد نعلم أن أبي لم يعد إلي عمله، مواعيد عمله كانت من الثامنة صباحاً حتى الرابعة عصراً، كنا نعلم ومع ذلك لم يجرؤ أحد علي سؤاله، ما الجديد ؟

***

كنت أتابع أبي بشيء من الدقة في هذه الأيام، لا أعلم لماذا تحديداً كنت أفعل ذلك ؟ لكني فعلت.

واقعة الكذب هذه أطاحت بأشياء كثيرة من قلبي تجاه أبي، وبدأ الشك يلازمني أحياناً، كنت أتعجب من تصرفات أبي في هذه الأيام، كيف سمح لنفسه أن يستيقظ من النوم بعد التاسعة ؟

أبي الذي يقدس الاستيقاظ مبكراً لم أراه يوماً مهما حدث نائماً لهذه الساعة، والأعجب انه يقوم مبتسماً رائقاً ويتحدث معنا أيضاً، هي تبدو أشياء عادية لكنها ليست عادية إطلاقاً، فالتجهم كان وجه أبي الأساسي، أبي الذي لم يتحدث مع أحد من قبل حتي أمي، الآن يتحدث ويبتسم ويومياً.. !

المفترض أن أبي في محنة، ومحنة ليست بالبسيطة بل عاصفة وقد تؤدي به للسجن. إذاً فالطبيعي بالنسبة لشخص مثله أن يكون متوتراً غاضباً وليس ما يفعله..!

لكن كل شيء ذهب أدراج الرياح في نهاية اليوم الخامس عندما أخبرنا انه سيعود لعمله صباح الغد وأن الأزمة انتهت نهائياً..

-١٥-

أعلم أن ما اعتقدته ضد أبي ليس دليلاً علي إدانته، وأعلم انه من المفترض ألا يساورني الشك في أبي من الأساس، وأن تغيير عاداته ليس البرهان الذي يجعلني أري أبي يفعل شيئاً مريباً، وأعلم أيضاً انه من المفترض أن أكون حزيناً بسبب أزمة عنيفة يمر أبي بها وأتعاطف معه وأن يذهب كل شيء بداخلي لتصديقه بل ومساعدته، لكن لم يحدث شيئاً من كل هذا.. !

نعم، هذه الحقيقة، أعترف أن هذا لم يحدث، فهل يوجد شيء يعاقبني علي عدم إحساسي وتعاطفي مع أبي..؟

هل يوجد شيء يعالجني من هذا ؟ شيء يعيدني إلي الإحساس، شيء يجعلني أشعر وأنفعل وأثور..؟!

أقول الحقيقة ؟

أنا لا أحتاج هذا الشيء وإن كان موجوداً، أنا أحتاج لشيء آخر، أحتاج لشيء يساعدني علي قتل ضعفي وخنوعي وخوفي، أنا أحياناً أشعر وأنفعل وأثور لكني دائماً خائف ضعيف خانع مهزوم، وهذه أزمتي فقط لا غير.

وفيما بعد حدث ما يؤكد صحة كلامي هذا، فبعد أول يوم لأبي في العمل ظهر « حازم « مرة أخري وعاد للبيت، كان طوال الخمس أيام السابقة بعد عودة أبي ومنذ شجارهم وهو بعيداً عن البيت، أحزنني هذا كثيراً لكني مثل أمي وباقي أشقائي لم نجرؤ علي السؤال أو استجداء أبي في العفو عنه، عاد « حازم « قبل عودة أبي من عمله، تهللت أمي لرؤيته، أعتقد أن أمي تحب حازم كثيراً وتعلم مدي نقاءه، فرحت بقدومه وجلست تتحدث معه بشغف

وتسأله عن أحواله وأين كان يقضي كل هذه الأيام ؟

حازم شخص مثالي لا يجعلك تقلق عليه، لم يكن في يوم منحرفاً أو أهوج، وذلك يجعلنا نطمئن عليه، حازم يمتلك وظيفة مرموقة براتب جيد وأصدقائه محترمون وذو فكر لذلك لم يأت في ذهني أن حازم طريداً بائساً يتسول الطعام ويقبع مع المدمنين كالصورة التي تؤخذ عن من يطرد من بيته..!

حازم كان هادئاً، يجيب علي أسئلة أمي وهو يأكل بنهم وهو مازال يرتدي بذلته الرمادية اللامعة، هدوئه شجع أمي كى تطلب منه الاعتذار لأبي عند قدومه وأن يهنئه علي عودته للعمل وانتهاء الأزمة، فالمفترض أن أمي تطلب من حازم هذا، لكنها كانت تتسول كأمراة احترفت التسول أمام الأضرحة الكبيرة، وحازم كل ما يفعله هو الإيحاء بأنه قد وافق علي تنفيذ طلبها وهو مازال يأكل.. !

***

في تمام الرابعة جاء أبي عائداً من عمله مبتسماً – اعتاد أبي علي الابتسامة منذ بداية خروجه الحجز – وكنا نجلس في انتظاره جميعاً وأمي أبدعت في الطعام وأعدت كل ما يحبه أبي، اقتربت منه وهمست في أذنه ببضع كلمات، وغالباً أخبرته بوجود « حازم « وطلبت منه السماح والرأفة معه.

خرج « حازم « بعد ذلك من غرفته، كان واثقاً من نفسه وانطباعات وجهه لا تنم عن شيء محدد، لم يفرح لرؤية أبي ولم يكن غاضباً، أجيد قراءة وجه حازم بسهولة، المبادرة كانت من أمي، قالت، حازم جاء ليعتذر لك ويهنئك بانتهاء الأزمة، حازم يحبك، وابتسمت أو اجتهدت كي ترسم الابتسامة، أمي كانت قلقة وهي تتحدث وكان واضحاً أنها تؤدي دوراً كممثل مبتدئ إلي أن تكلم حازم أخيراً وقال :

مبروك، خرجت أنت، وذهب « أحمد خيري « للسجن بدلاً منك... !!!

امتعض وجه أبي وبدا كالمصعوق، لكن « حازم « استكمل :

قضية سرقة كبيرة لأكبر مخازن وزارة الصحة، ففجأة اختفت أدوية باهظة

الثمن وأجهزة تم استيرادها من الخارج بملايين، وطبيب شاب – وأهوج كما تقولون – تقدم ببلاغ للنيابة العامة ضد ما رآه – هو – سرقة لدماء الغلابة والفقراء، فيتم القبض علي المسئول الأول عن المخازن، ويقضي يومان في الحجز رهن التحقيق، يأتي له أشخاص من زملاؤه، يعودون، فتظهر في اليوم التالي أدلة براءة المتهم الذي يتم التحقيق معه، تظهر أذون إضافة كل شيء بالمخازن بالكميات الصحيحة التي ذكرت في البلاغ المقدم من الطبيب الشاب، ويتبين بعد الجرد أن المخازن تمت سرقتها، لكن المسئول الأول كان في اجازة مرضية هذه الأيام وهناك ما يؤكد غيابه عن العمل تلك الأيام، لذلك هو غير مسئول، ويتم القبض علي « أحمد خيري « الذي يشهد الجميع بحسن أخلاقه وطهارة يده.. !

مبروك يا أبي علي البراءة وانتهاء الأزمة.. مبروك.. !

ثم خرج حازم من البيت وهو ينظر لأبي نظرة ليس لها تفسير إلا الاحتقار...!!!

obeikan.com

-١٦-

بعدما انتهي أبي من بكاؤه عقب خروج حازم، ساد صمت الصدمة من جديد، بدأ الشك يعصف بنا جميعاً - عدا أنا فالشك معي منذ البداية - نظرت أمي لرحاب ورحاب نظرت لأمنية وهكذا ظلت العيون تتمني التلاقي لكنها تبحث عن الهروب.

لماذا بكيت يا أبي ؟، أعتقد أنك بذلك قلت أن ما قاله حازم صحيحاً، لماذا لم تصمد هذه المرة ؟ لماذا لم تكذب مرة أخري..؟!

أوي أبي لفراشه وحيداً، وتقوقعت أمي ومعها رحاب وأمنية في حجرتهما وعدت أنا لذاتي الحائرة، جلست كما أحب في الظلام، لا أعلم هل أحببت الظلام أم أنني أجد راحتي فيه لأنه رمزاً للهروب وملاذاً من كل شيء..؟!

حسام يساعدني علي ذلك بعدم وجوده الدائم وصمته الملازم له وقت جلوسه، يبدو أن « حسام « لا يعيش معنا، أعتقد أنه لا يأبه بشيء، وهذا في حد ذاته مريح، ليتني مثله، لكني لا أستطيع ذلك، جلست وحيداً في ظلامي، أعيد ترتيب الأوراق علني أصل لشيء جديد.

ما الذي يحدث ؟ هل أبي مختلس حقاً ؟ وهل حازم جاء ليؤكد له انه يعلم الحقيقة ؟ وهل تقبل أبي أن يُسجن أحداً بدلاً منه ؟ وهل حازم عاد ثائراً قوياً كما كان..؟!

أنا بارع في تفنيد الأحداث وطرح التساؤلات، لكنى عاجز - كل العجز - عن البوح والمناقشة والمواجهة.. !

أنا ضعيف لدرجة تبكيني، البكاء الذي أتمناه ولا أستطيع الوصول إليه.. !

وبدأت حالتي النفسية تنهار بسرعة غريبة وأنا أساعدها بتوفير كل ما

تحتاجه من عوامل، ولم ينقذني من هذه التفكير المؤلم إلا صوت قوى بالخارج جعلني أخرج مسرعاً، أستطلع ماذا حدث ؟!

obeikan.com

-١٧-

أزاح « فارس « كل شيء كي يظهر الحائط المقابل لباب البيت فارغاً نظيفاً، وكتب علي الحائط بخطه البدائي (محكمة) وأسفل منها رسم ما يشبه الميزان – كان يقصده – ووضع منضدة خشبية صغيرة وعليها سكين كبير، وجاء بكرسي ووضعه خلف المنضدة وجلس عليه بعدما أضاء البيت.. !

أدهشني ما يفعله « فارس « ولم أستوعب شيئاً، مازال الجميع حبيس غرفته، أنا فقط من يري هذا، جئت من خلف « فارس « متلصصاً أحاول فهم ما يحدث، لمحني فارس، أشار لي بسبابته يحذرني من التحدث، كأن النطق هنا ممنوع، وفعلت كما أمرني وتوقفت..!

علي يمينه لافتة مكتوب عليها بخط يده المهتز (الموت) وعن يساره لافتة أخري مكتوب عليها (الظلم)، اللافتتين بجواره علي كرسيين أقل ارتفاعاً من الكرسي الجالس عليه، وكان من الواضح انه يقصد ان اللافتات تشهد أحداث المحاكمة، أو هكذا فهمت وقتها.. !

وأشار لي مجدداً أن أنظر إلي يمينه مرة ويساراً مرة، وطلب مني الأختيار، لم أفهم مخزي ما يفعله، أعتقد لوهلة أنني تحت تأثير أضغاث أحلام، لكن كل شيء كان حقيقياً، وقفت مندهشاً مما يحدث، وهو مازال يلح علي في الاختيار، ارتبكت بشدة، فرفعت اللافتة المكتوب عليها (الموت) فوجدت صورة حازم.. !

صعقت وانقبض قلبي ورفعت اللافتة الأخري المكتوب عليها (الظلم) فوجدت صورة أبي.. !!!

obeikan.com

obeikan.com

-١٨-

أري أنه من المهم الآن أن أعود بك لما حدث لحازم بعد واقعة القبض عليه الأولي لعلك تري أشياء لا أراها أو أشياء أراها لكني لا أجرؤ علي البوح بها.. !

ومهم – الآن – قبل أن تعلم ما الذي فعله أبي بحازم عقب مواجهته أمامنا واتهامه بأن خروجه كان علي حساب زميل له.. !

أبي لم يكن يعلم أن حازم – ومازال لا يعلم – أنه لا يخاف شيء ولا يخافه هو، ولا يخاف السجن أو الموت.

فبعد ثلاثة أسابيع من الواقعة تعافي « حازم « وعاد لابتسامته الهادئة وللتدوين وللوقفات الاحتجاجية و « للمحارة «.. !

لم يسر حازم بجوار الحائط كما أمره أبي بل ابتعد عنها أكثر.

عاد لنشاطه يكتب، ويدون، ويصرخ، ويضحك، فأدركت أن حازم يهاجم الحكومة وأن ما يفعله يثير غضب الجميع، لكني لم أكن أعلم لماذا يغضبون..؟! ولماذا هو يهاجم أصلاً ؟

لكنني أثق في حازم، كنت فخوراً، لا، ومازلت فخوراً.. !

أنا لماذا حتى الآن أكتب « كنت «..؟!

هذا يجعلني أغضب من نفسي وذاتي المنهزمة، لا وجود لهذه الكلمة، لن أقولها مرة أخري وإن وجدتها احذفها، أنا مازلت وسأظل فخوراً محباً لأخي الأكبر وقدوتي وأطهر من رأيت، أخي الحبيب « حازم «.

حازم أهم من أن يذكره « ضعيف « مثلي بكلمات مهتزة لا قيمة لها مثلي أيضاً.. !

***

Obeikan.com

حازم ظل صادماً مزعجاً وذاع صيته كأحد الشباب المندفع المتهور – حسب وصفهم – وأن نشاطه سيجلب له الكثير من الأخطار. فعاد أبي للمواجهات معه. وظلت هذه المواجهات المتكررة وإن لم تأت بجديد، أبي كان يتراجع لأن مساعدات « حازم « المالية بدونها يختل المنزل.

ظلت الصراعات جزء من حياة أسرتنا لكن تبقت سعادتي بما يفعله حازم وايماني بما يسعي إليه، وإن لم أكن أعلم ما هو، حتي تم القبض عليه مرة أخري.. !

***

تم القبض علي حازم للمرة الثانية من داخل غرفته وأمام أعيننا وبعد أقل من ستة أشهر من القبض عليه أول مرة.

أتي شرطيين ضخام بعد منتصف الليل بقليل وطرقا الباب وطلبا من « حازم « تغيير ملابسه وقاموا بتفتيش غرفته وأخذوا أشياء كثيرة منها، وبعض الكتب ومزقوا ما لم يأخذوه وعندما اعترض حازم صفعه أحدهم بقوة علي وجهه بعنف ثم انصرفوا في أقل من عشر دقائق..

***

أنا أنكسرت في هذه اللحظة، انكساراتي كلها شيء وهذا الموقف المخزى شيئاً آخر، أنا رأيت أخي الأكبر وقدوتي يتم ضربه وصفعه أمامنا، ومع ذلك لم أتدخل ووقفت أشاهد فقط.

لم أصرخ، ولم أتفوه ولو بكلمة، بل وخشيت حتي أن أدعو عليهم مثلما فعلت أمي.. !

-١٩-

أشرقت « أسماء « في اليوم التالي للقبض علي « حازم « داخل بيتنا المظلم.

في العاشرة صباحاً تقريباً، فوجئنا بالطرق مجدداً علي الباب، الباب الذي سئمت منه، لم نكن ننتظر أحد، ولا نود أن يأتي إلينا أحد من الأساس، لم يكن لدينا مساحة لأوجاع جديدة، وقامت « أمنية « لتري من الطارق، وكانت « أسماء «...

قبل أن تضع أول خطوة لها في بيتنا المتواضع، خطفت أبصارنا المتلهفة، فتاة بيضاء يشع الضياء من وجهها الرائق، ترتدي جينز ضيقاً و « تي شيرت « أسود وتغطي عينيها نظارة شمسية كبيرة نوعا ما..

أزاحت النظارة، واقتربت من أمي وقالت لها : كيف حالك يا أمي..؟!

قالت أمي بتعجب : الحمد لله.

وجلست بجوارها وقالت : أنا أسماء.

فنظرت أمي لرحاب ثم لأمنية باحثة عن رد فلم تجد.

فاستكملت الفتاة : أنا زميلة « حازم « وجئت أطمئن عليكم..

فتغيرت ملامح أمي وابتسمت وقالت لها : أهلا وسهلاً بك..

فقالت « أسماء « :

« لا تقلقوا، حازم سيعود قريباً، حازم مناضل شريف، وهم خائفون منه، وهذا لا يغضبنا، هذا يجعلنا نفتخر به..

لم تنظر أمي إليها، بل وضعت وجهها بين كفيها وبكت بعدما انتهت أسماء من كلماتها، فارتمت أسماء في حضنها وشاركتها البكاء.. !

***

أخبروني فيما بعد أن « أسماء « من أسرة ثرية وتعرفت علي « حازم « في الوقفات الاحتجاجية وأعجبت به ، وكانت وقتذاك طالبة في السنة النهائية لها في الجامعة، وتملأها الطاقة ويروق لها الأفكار الجريئة والشعارات والتغيير وخلافه..

اقتربت من « حازم « وتحدثا كثيراً وشاركته في الكثير من نشاطاته ومن هنا اقتربا وأحبها « حازم « وذابت فيه عشقاً لكن الموضوع توقف – تقريباً – عن هذا الحد !

تخرجت من الجامعة، وعلم أهلها بما تفعله وعلاقتها بحازم، فقطعوا علاقتها به بمنتهي السهولة خاصة بعدما تم القبض عليه.. !

ولا يوجد تفاصيل أكثر من ذلك، فعلاقتهما لم تتعد الخمسة أشهر، وكانت هذه المرة الأولي والأخيرة التى رأينا فيها « أسماء «... !

o b e i k a n . c o m

-٢٠-

عاد حازم بعد أيام.. !

وفي لحظة استقباله وتجمعنا حوله خرج « فارس « من دورة المياه ومعه عصا خشبية تجمع بخيوط رفيعة ثلاثة عشر بالونة بيضاء ووقف أمام حازم وهو يبكي.. !

اندهشنا بل أفزعنا ما يحدث، من أين أتي « فارس « بهذه البالونات وكيف تكمن من ربطها هكذا ؟!

توقف « حازم « عن بكاؤه وضربته الدهشة أيضاً، كل البالونات مكتوب عليها بخط نسخ جميل « أسماء «.. !

أحضر « فارس « كرسي صغير ووقف عليه أمام « حازم « وأصبح في وجهه، ثم نظر إليه نظرة حادة ثم غرس كل أظافر يده اليمني في أول بالونة فانفجرت، ثم كرر نفس النظرة لحازم ثم نفس فعله بغرس اظافره في البالونة التالية حتى انفجرت، وظل هكذا حتى تبقت البالونة الأخيرة، فلم يرفع « فارس « عينيه في حازم لكنه مد يده بالعصا وبها البالونة الأخيرة إلي حازم وهو منكساً رأسه ينظر للأرض، وعندما مد حازم يده واخذ العصا، قفز فارس من أعلي الكرسي وعاد لغرفته وأغلق الباب.. !

obeikan.com

obeikan.com

-٢١-

هي حمقاء، وهو اعتاد مواجهة الحمقى، المعركة لن تأخذ منه وقتاً أو جهداً، مع أن لفظ « المعركة « يضفي علي الموضوع أهمية لا يستحقها، هي ظلمته وحازم يجيد مواجهة الظالمين، هذه هي قضية حياته، لذلك يمتلكني هذا اليقين، أسماء رمز للاستبداد، وحازم لن يسير خلف مستبد، أسماء غابت يا حازم، أسماء لن تعود، لكن مهم أن تعود أنت، أسماء لا تستحقك يا حازم، أنت قلت لي من قبل أن أقذر أنواع الخيانة، خيانة الأحلام، هي خانت يا حازم، خانت أحلامك، لا تحزن أرجوك، لا تحزن.

هي لا تستحقك.

كنت أود أن أقول كل هذا لحازم، كنت أتمنى أن أصرخ فيه وأنا أتحدث، كنت أتمنى أن أتكلم، لكني لم أتحدث ولو بحرف ولا تسألني، لماذا من فضلك..؟!

ضعفي كان أكبر من أن أتكلم، وضعفي لم يكن المانع الوحيد أن أذهب وأقول له ما بداخلي، ما فعله « حازم « جعل الجميع يتردد في مجرد الاقتراب منه، ثار وتبدل حاله وصدرت منه أشياء عجيبة، وما فعله « فارس « ببالوناته جعل الأمر يزداد سوءاً، فبعد هذه الليلة الحزينة، غادر حازم البيت ولم يعد لمدة أيام، حالته السيئة جعلتنا نخشي حدوث مكروه له بدأنا البحث عنه بعد ساعات فقط من غيابه، أمي كانت وراء هذا البحث السريع، وذهبنا لأكثر الأماكن المتوقع ذهابه إليها فلم نجد له أثر، سألنا كل أصدقائه تقريباً، لا يعلم أحد عنه شيئاً، الجدير بالذكر أن أبي كان معانا في البحث، وكان قلقاً

عليه لأول مرة في حياته، نعم كان قلقاً، وحينما انتهت كل الطرق التقليدية للبحث بدأ اليأس يرسو علي شطآن أنفسنا الموجوعة علي حازم، كان بداخلي يقين أن حازم لن يعود، لكني لم أجرؤ علي البوح به، لكنى استمريت في البحث معهم حتى الفجر دون أن نصل لشيء، وقفنا، أبي وعمي وبعض أصدقاء حازم وحسام وأنا ننظر لبعض، العيون قالت لمثيلاتها، أن الأمر بات مزعجاً، وظل الصمت يسود حتي قال أبي، نعود للبيت علي أن نحرر محضر بقسم الشرطة باكراً إن لم يظهر جديد.. !

***

ما كنت أخشاه هو عودتنا للبيت بدون « حازم « ومواجهة أمي بفشلنا وعدم عثورنا عليه، توقعت صراخ وعويل وبكاء، لكن أمي فاجأتني بهدوء عجيب مريب وجلباب أسود ومسبحة كبيرة في يدها ودموع تعاني الحبس في عينيها.

أزعجتني هيئتها، المشاجرة معنا كانت أفضل وأنسب من وجهة نظري، حازم غاب حزيناً فقط، هيئتها تدل علي شيء آخر مخيف، انقبض قلبي، وأبي قال بمجرد دخوله وبصوت منخفض، بحثنا عنه عند أصدقائه والمقاهي التي يجلس عليها لكننا لم نجده، في الصباح سنجده بالتأكيد، أمي لم ترفع عينيها تجاه أبي، أؤمات فقط برأسها، وفر أبي مسرعاً نحو غرفته بمجرد انتهاء كلمات تبريره الساذج وقبل أن يري رد فعلها الذي لم تفعله.. !

***

مر اليوم الثاني لغياب « حازم « هادئاً، البحث من أبي وأعمامي لمجرد البحث فقط، وقتها رأيت اليقين القابع داخلي يسير أمامي، « حازم « لن يعود، علي الأقل الآن، الإحساس قد تسرب وتمكن من الجميع بما فيهم أمي، وقد كان...

مر اليوم الثالث والرابع ونحن في حالة استسلام وانتظار لمفاجآت متوقع حدوثها، حتي جاءت أول الصدمات في اليوم الخامس عندما جاء زميل لأبي يخبره أنهم وجدوا حازم عند مزلقان السكة الحديد، كان يحاول الوقوف أمام

القطار وهو يصرخ ويهذي بكلمات غير مفهمومة، الخبر كان صادماً مخزناً، فهرولنا جميعاً، المشهد كان مؤلم، مؤلم لدرجة أنني شعرت بأن البكاء قد يقترب مني، لكنه لم يقترب.. !

***

حازم كان مربوطاً بحبل كناقة يخشون هروبها.. !!!

كان جالساً علي الأرض باكياً بملابس متسخة وهيئة قذرة..

طعنتني بهذا المشهد يا أعظم من رأت عيني..!

لماذا يا حازم تترك فتاة تهزمك ؟

من أسماء ؟

وما هو هذا العشق ؟

اللعنة علي الظلم..

اللعنة علي الحب..

واللعنة علي « أسماء «.. !

في هذه اللحظة كنت أتمنى البكاء لكنه دهسني وتركني أتألم بالرؤية فقط، أبي بكي بمجرد رؤيته حازم وارتمي في حضنه وبكي حازم، الموقف كان عصيباً وأتمنى نسيانه، كانت كزلزال قوى، أفقدني كل شيء..

وتكفل زميل أبي بالحديث مع عمال السكة الحديد وتوضيح الأمر، وحرروا « حازم « من الحبال والشفقة تملأ عيونهم وانصرفنا.

obeikan.com

-٢٢-

رفض حازم العودة للمنزل بسيارة وطلب من أبي أن نسير جميعاً علي أقدامنا، قال انه يود استنشاق الهواء وهو معنا، راق لي طلب حازم، أعتقد انه طلب السير علي الأقدام كي يبحث عن نفسه مثلما كنا نبحث نحن عنه.. !

وفي كل خطوة كان يلتفت حازم يمينه ويساره، ينظر في وجوهنا تارة وفي المارة تارة، وفجأة ينظر للسماء ويحملق فيها كأن بها شيئاً يحدثه ثم ينظر للأرض ويدقق النظر فيها كأنه يبحث عن شيء مفقود.. !

كنت سعيداً بعودة حازم وبما يفعله، وعندما ضبطني حازم أحدق فيه، ابتسم لي، كان شيئاً مبهجاً بالنسبة لي أن تكون أول ابتسامة لحازم لي، حازم يحبني مثلما أحبه، وعندما وصلنا للبيت بعد نصف ساعة من السير توقف حازم أمام أمي ونظر إليها ثم تعانقا وكاد أبي أن يبكي لكنه تمالك نفسه وصعدنا جميعاً..

بكت أمي من فرحتها برؤية حازم وهرولت أمنية نحوه وقبلته علي جبينه، وظل حازم يوزع ابتساماته الهادئة للجميع، وتناول معنا الغداء وهو صامت مبتسم كأنه يري من حوله لأول مرة.. !

بعد ذلك قام حازم طالباً الأذن للراحة – قالها كأنه غريباً – فقامت أمي معه حتى غرفته وأعدت له فراشه ثم خرجت وأغلقت باب غرفته.

الطريقة التي طلب بها حازم الدخول لغرفته أقلقتني عليه، بدا الأمر بالنسبة لي مريب لكنني فضلت ألا أنساق خلف هذه الهواجس، لكن قلبي لم يكن مطمئنا وأنا بكل أسف أثق فيه.. !

أكد حازم ثقتي وقلقي معاً وترك صراخه من داخل غرفته ليفزعنا من جديد بعد عشر دقائق من الهدوء والسكينة، لكن صراخه هذه المرة كان مختلفاً، وقبل اقتحامنا لغرفته تريثت أمي وكنت خلفها لسماع ما يقوله حازم، كان يقول شيئاً مفهوماً واضحاً لكننا لم نفهم ما هو تحديداً، فتقدمت أمي وفتحت الباب وأنا وحسام خلفها ننظر بشغف، حازم يقف ووجهه للنافذة المغلقة ويقول والدموع تنهمر من عينيه :

من خان منا..؟! *

صدقيني.. أنني مازالت أسأل..

أين قلبك.. هل غدر..؟

فلتسأليه إذا خلا لك ساعة..

كيف الربيع اليوم يغتال الشجر..؟!

أدركت من الوهلة الأولي أن هذا جزء من الأشعار التي يحبها ويحفظها حازم، لكن أمي وحسام لم يدركوا شيئاً، اجتهدت وبحثت كثيراً كي أصل للأبيات ووصلت إليها بعد معاناة، سألتنى أمي، لكني لم أجب، ولا أعرف لماذا كان صمتي..؟!

اقتربت أمي من حازم وربتت علي كتفه وقالت له بهدوء : ماذا بك يا حازم ؟

نظر حازم إليها بهدوء وعيون يملأها الحزن وقال : لا شيء يا أمي..

وعاد لفراشه ونام ونحن أمامه، هدأت أمي نوعا ما، وخرجنا وهي تدعو له بالراحة والهداية وقلبي مازال غير مطمئن.. !

بعد أقل من نصف ساعة تكرر الصوت الآتي من غرفة « حازم « وبنفس النبرة الأولي. انزعجت أمي التي لم تفارق باب الغرفة، قلبها أصابه القلق مثلي، وتكرر نفس الفزع، ودخلت أمي وحسام وأنا معهم، فوجدنا حازم واقفاً في نفس المكان ويردد نفس الأبيات والدموع مازالت تنهمر من عينيه..!

ارتجفت أمي وشعرت بأن الأمر خطير لدرجة نحن لا نعلم مداها، وعندما ربتت علي كتف حازم، أزال دموعه بيده وقال نفس الجملة : لا شيء يا

obeikan.com

أمي.. !
وعاد لفراشه ونام ونحن أمامه وخرجت ومعي وظلت أمي بجواره تردد آيات قرآنية وأدعية لمدة دقائق حتى تأكدت من استغراقه في النوم وخرجت وهي تدعو له..
غادر حسام البيت، واتجهت لغرفتي وجلست في الظلام كعادتي، وذهبت أمي لفراشها وساد الهدوء، حتى جاء نفس الصراخ من غرفة حازم بنفس الأبيات من جديد.. !

***

أبي قال أن حازم أصبح كابوساً نعيشه، وهذا تعبير قاسي لم ولن أقوله مهما حدث، لكني أبي قاله كثيراً علي الملأ وأمي كررته، أحزنني هذا كثيراً بالرغم من أن ما يفعله حازم يؤكد ذلك وأن الأمر بات صعباً وغير عادياً علي الإطلاق.
رفضت أن أصف « حازم « بالكابوس لأن هذا ظلم إضافي له، قلب حازم لا يحتمل سهم جديد ليطعنه، حازم رمز عظيم، قلت سأواجه أبي وأعلن له ضيقي مما يقول لكنى تراجعت كالعادة، وكالعادة يهزمنى ضعفي وأخذل حازم في وقوفي بجانبه، لكنى أحبه.. !
كنت أدعو له ليلاً ونهاراً – أعلم أن هذا أضعف الإيمان – لكنه الشيء الوحيد المناسب لأضعف إنسان، أنا هذا الضعف.. !
ومرت الأيام هادئة بل وبدأت حالة حازم تتحسن رويداً رويداً.. إلا أنا نوبة هذيانه بالشعر لم تفارقه وتطور الأمر لدرجة غير متوقعة، فأصبح حازم دائم الصمت ثم فجأة يهذي بكلمات غير مفهومة ثم أبيات شعرية يقولها بصوت مشروخ وهو يتمزق ويصرخ كأن « أسماء « ستسمعه.. !
كنت أبكي عندما تزداد حالته سوءاً هكذا، وتطور الأمر وبدأ حازم يترك البيت ويخرج للشارع وهو في هذه الحالة الواهنة، في البداية قاومنا خروجه فجاء الرد منه قوياً جامحاً بتكسير كل شيء حوله ومحاولته الانتحار فتراجعنا

فيما بعد، وعندما يقرر الخروج لا يمنعه أحد، كان يخرج وهو يهذي ويسير في الشارع وهو يبكي ويصرخ، لا يتجه لمكان معين، كأنه مجذوب تقذفه الشوارع لبعضها البعض، الناس تشاهده وهي ترثي حاله وتعطف عليه، كان أبي يضطر للسير خلفه من بعيد يتابعه حتى لا يتعرض لخطر وخوفاً عليه من عدم عودته مرة أخري، هذه النوبة كانت تستمر أحياناً لساعات وحازم يصرخ قائلاً أبيات شعر لا يفهمها أحد ويبكي وأبي من خلفه يتابعه فقط.. ! مرة وحيدة فقط التي قررت فيها النزول خلف حازم – لم أكررها – فبمجرد نزوله بدأ يصرخ فاقشعر بدني وأصابتنى ارتجافة وسقطت فاقداً للوعي ، كنت أفضل الموت من رؤية حازم مجنون يخافه الأطفال ويضحك عليه المارة، تمنيت الموت لكنه لم يأت حتى الآن.. !

obeikan.com

-٢٣-

لا أعلم لماذا ثار أبي بعدما رفضت إدارة المدرسة قبول « فارس « بل وكاد أن يورط نفسه في جريمة باعتدائه علي مدير المدرسة..!

لا أعلم هل كانت مفاجأة بالنسبة لأبي أم أنه التأكيد الأخير لشيء يخافه، ففعل ما فعل ؟

ففي العام المنقضي رفضت المدرسة قبول فارس بالصف الأول الابتدائي كونه لم يتم عامه السادس، الحاجز كان شهور قليلة، والصرامة الروتينية في هذه الجزئية تحديداً أقنعت أبي وعاد بأوراق فارس كأن الأمر طبيعي، وتجاهل – ولا أعلم لماذا ؟ - ما همس به ناظر المدرسة في أذنه بأن فارس يبدو وكأنه من ذوى الاحتياجات الخاصة ولن تستطيع المدرسة أن تقبله إن لم يستطع إثبات العكس.. !

وإهمال أبي لهذه الملاحظة جاء كخوف من مجهول يتوقع حدوثه، ففارس منذ اليوم الأول له في الحياة وهوغير طبيعي والجميع يتفق علي هذا، فعلي مستوي الشكل العام جسد فارس ضخم نسبياً لا يناسب عمره، عريض المنكبين، يقترب طوله من ١٥٠ سم تقريباً، وجهه مستدير أبيض اللون، عينيه ليست طبيعية، عينه اليمني ضيقة نوعاً ما وعدستها سوداء داكنة، واليسري واسعة وعدستها زرقاء، اختلاف عينيه جعل هيئته تبدو غير طبيعية، شعره خشن بني اللون، ورقبته مجرد سنتيمترات صغيرة تبدو رأسه كأنها ملتصقة بالقفص الصدري مباشرة، والشعر ينتشر علي كافة أنحاء جسده بكثافة، ورغم أن فارس لم يسبق له دخول أي تجمعات « حضانات « أو فصول

obeikan.com

لتعليم بدائي، إلا انه يمتلك مهارات كثيرة إلي حد ما، فهو يستطيع إمساك القلم والتعامل به ويميز الألوان ويتحدث بأشياء لا نعلم من أين يأتي بها..؟! كما كان يفعل أشياء كثيرة غريبة وغير متوقعة، بل ارتبط كل شيء يحدث في بيتنا بما يفعله فارس أو ما فعله، وأنا ذكرت فيما سبق أشياء كثيرة من هذه الأفعال.

منذ ولادة « فارس « وهذه الأفعال الغرائبية مرتبطة به، في البدء اعتقدت أمي انه ممسوس، وذهبت به لشيوخ كثر ولم يسفر هذا عن شيء فتركت الأمر وسلمت بأن فارس طبيعي وأن ما برؤوسنا مجرد أوهام، وعندما تزايدت أفعاله الغرائبية أعتقد « حازم « أن فارس ذو احتياجات خاصة ربما تكون إعاقة ذهنية لم نكتشفها، لكن لم يظهر شيء يؤكد هذه الرؤية، ضيق ذات اليد لأبي وتصاعد حالة الانسجام والحب بين فارس وحازم جعلا هذا الاعتقاد يذهب أدراج الرياح خاصة أن أفعال فارس معظمها يبدو طبيعي ومنطقي ولا يحدث منه ضرر سواء له أو لمن حوله، ولهذا مرت السنوات الستة في هدوء حتى وصلنا لما نحن فيه.. !

***

ساءت حالة أبي النفسية بعدما رفضت كل المدارس المحيطة بنا قبول « فارس «، تأكد أبي أخيراً بأن « فارس « غير طبيعي علي الإطلاق، وفشلت كل الطرق الملتوية من عرض هدايا أو رشاوى أو توصية مسئول كبير في الإدارة التعليمية، الموضوع كان أوضح من أن يتم إخفاؤه، وغرق أبي في مستنقع حزن جديد.

ففي هذه الآونة كان يجاهد مع حازم الذي أصابه الهذيان وتحول كارثة – طبقاً لوصفه – ثم جاءت الصدمة التالية بضرورة اعترافنا بأن فارس مصاب بشيء لا يعرفه أحد.. !

رفض أبي التسليم بكل ما يراه الناس في فارس، فترك حازم يهذي بأشعاره في الشوارع متحولاً لمجذوب وذهب لأكثر من طبيب محارباً فكرة الاعتراف

بمرض فارس، لكن آماله خابت وجاءت كافة التشخيصات – تقريباً – متشابهة. فارس معاق ذهنياً.

ورفض أبي – للمرة الثانية – الانصياع لتشخيصات ساذجة – كما وصفها – من أطباء متخلفون – كما وصفهم أيضاً – ولعنهم أبي ولعن من جعلهم أطباء ولعن التعليم المريض الموجود في بلادنا، كانت المرة الأولي التي أري فيها أبي ثائراً متمرداً ولو ببعض كلمات، أبي يلعن التعليم علناً ويلعن الجهل في بلادنا، الحدث بالنسبة لي كان يستحق الوقوف، هل أبي يؤمن فعلاً أننا في معاناة تستحق كل هذه اللعنات..؟!

هل رأي أخيراً أن الجهل يحاصر كل شيء..؟!

لم يرتق طموحي لدرجة أن يجيبني أبي علي تساؤلاتي، سعادتي كانت في رؤيته – أخيراً – يري ولو جزء من الحقيقة، السعادة – فعلاً – أنني رأيت أبي شامخاً ولو لحظة رافضاً أي شيء ولو بكلمات.. !

ربما تقول أن الأمر لا يستحق كل هذا التأويل وما بني عليه – مجرد فضفضة في لحظة تمر علي أي إنسان طبيعي، لكني لم أراها كذلك، رأيت غضب كامن وزيف أبي بناه بيده منذ سنوات طويلة، لهذا نسيت معاناة حازم ومرض فارس وبحثت عن السعادة.. !!!

***

لكن أبي ظل يبحث عن أي شيء يثبت له أن « فارس « إنسان طبيعي بعد أن خابت آماله في الطب واتجه لطريق جديد لعله يجد ضالته فيه، وذهب لمشايخ ومن يستعملون الطب البدائي طالباً منهم تشخيص ما يعاني منه « فارس «، البعض قال انه يحتاج لرقية شرعية، والبعض قال انه مموس، والأكثرية قالوا هذا شيء عجيب لم نري مثله من قبل.. !

ومع انتهاء كل جولة من هذه الجولات كانت همة أبي تضعف شيئاً فشيء حتى تلاشت تماماً مع تشخيص هؤلاء المشايخ، واعترف بصعوبة بأن فارس معاق ذهنياً أو غير طبيعي.

وانتقل بتفكيره لمرحلة تالية، ما الذي يفترض عمله تجاه « فارس «، مريض ويحتاج لعلاج، لا يتألم، ولا يسبب ضرر لنفسه أو لغيره..؟!

ضربت الحيرة عقولنا جميعاً، فالوضع ليس بالبسيط، نبحث عن حلول لمشكلة لا أحد يعرف ماهيتها بشكل واضح، وقبل أن يختار أبي الصمت وأن يبقي الوضع كما هو عليه لحين إشعار آخر، فرض الصمت نفسه بسبب ما حدث..

obeikan.com

-٢٤-

لم يهنأ أبي طويلاً بشبه حالة الاستقرار التي جاءت بشكل مفاجئ لم يكن يتوقعه، فانزواء « حازم « وعودته لطبيعته كانت بمثابة فرحة لم يكن أبي يتوقعها علي الأقل الآن، ففجأة اختفت نوبات هذيانه بل انتهت تقريباً، شهر بأكمله لم تأت هذه النوبات التى كانت تزوره أسبوعياً أكثر من ثلاث مرات، واكتملت فرحة أبي برؤية الرضا التام في عيون أمي وأشقائي عن قراره بأن يبقي « فارس « في البيت وصرف النظر عن التحاقه بالمدرسة علي أن يتم تعليمه في المنزل بواسطة مدرسين نحضرهم له خصيصاً مراعاة لظروفه الخاصة، لم يكن الحل الأمثل ولكن أبي قرر وأد شبح جديد لمعاناة جديدة، هذا هو أبي، الهروب الممزوج بالضعف أو الضعف في هيئة هروب، أعتقد انه السبب الأساسي فيما أنا فيه، وأعترف بهذا وأكرهه، لا أكره أبي، حتى لا تفهمني خطأ، مهما حدث ومهما فعل لن أستطيع أن أكرهه، ربما فعلاً هو سبب كل شيء وكل ضعف وكل خذلان، لكنني لا أجرؤ علي كرهه، هو يستحق ذلك الشعور البغيض لكنني لن أفعله، لن أفعله عن حب واقتناع وليس لأنه أبي وحسب، ولكن لأشياء أخري لا أعلم ما هي تحديداً.. !

لا أريد أن أقسو عليه وأنا الضعيف مثله، لا أريد عقابه علي كونه مجرد نبع من سلالة عاشت في الوهن وشربت الظلم وتذوقته، هو لا يستحق القسوة، وأنا لا أمتلك حق العقاب، وإن كان يستحق الكره.. !

الأجدر أن أنصب لذاتي المشانق، ذاتي التي رأت الضعف واستسلمت له وانحنت للظلم ورحبت به وكفرت بالصمت ومع ذلك تعبده.. !

أنا من يستحق الكره وليس أبي.. !

عاد القلق لأبي مرة أخري من حازم بعدما عاد صموت وعاد لحياته الهادئة كما كان، بدأ حازم يعود للتدوين ولأصدقائه وذهبت نوبات الهذيان بلا عودة، هذا أسعدنا جميعاً لكن أقلق أبي، حالة الاضطراب التي كانت تسيطر علي الأجواء في البلاد جعلت أبي يرتجف مع أنها جعلت حازم يتعافي، أعتقد أن حازم لا يجد نفسه إلا في هذه الأجواء، لا أعتقد بل متأكداً، الغضب مكون أساسي داخل حازم، لذا عاد لتركيزه ولذا لم يهنأ أبي.. !

اندلعت المظاهرات وتصاعدت الأحداث ولم يتحمل أبي وطرد حازم من البيت بعد ثلاثة أيام لأنه – كما قال أبي – أهوج وسيتسبب في إلحاق الضرر بالجميع.. !

٢٥

أنا أتذكر كل تفاصيل هذه المظاهرات وكل ما حدث، أتذكر كل شيء، ولا أعلم لماذا مازلت حتي الآن أتذكرها بكل هذه الدقة، لا أعلم هل أحبها بكل هذا الشغف، أم أنني أمقتها بشدة كوني إنسان ضعيف جبان يخشي الشجاعة والحق وأتذكرها فقط لأنها علاقة تذكرني بضعفي، أنا لا أعلم أين أنا وأتمنى أن تساعدني، أشعر أني أختنق كلما تذكرت خاصة عندما يأتي ذكر حازم، الآن لابد أن أتحدث معك عن حازم، حازم يستحق أن نتحدث عنه، أنا لا أستحق شيء..

نعم، لا أستحق شيء، لكن حازم يستحق كل شيء.. !

فبمجرد اشتعال الأحداث في البلاد انتهت نوبات الهذيان التى يعاني منها حازم، أنا لم أندهش من شفاؤه المفاجئ مثلهم، أنا كنت متأكداً أن حازم تجاوز أوجاعه مجبراً، فالثورة لم تكن بالنسبة لحازم مثلنا حدث جديد وطارئ، كانت حلم بالنسبة له بعدما قضي كل سنوات عمره يبحث عنها، هذا الحالم كان يتوق ويتوقع ما حدث لذا انجرف فيها..

انطلق حازم كسهم جامح لا يوقفه أحد مع اندلاع المظاهرات، كان في الصفوف الأولي دائماً ينظم ويجهز النداءات المختلفة ويزعق بصوته المشروخ

دائما وينسق مع زملائه في كافة المناطق الأخرى، صدق حازم نفسه وحلمه معتقداً أن هتافه سيقلع الظلم من جذوره وصار الوجه الأول إلي أن تم القبض عليه وذهب حيث لا يعلم أحد.. !

obeikan.com

obeikan.com

-٢٦-

بالتأكيد أنا لم أنزل للميدان وبالتالي لم أشاهد شيئاً مما قلت عن حازم، أنا جبان بدرجة تفوق ذلك، ملايين من كل فئات الشعب نزلت وصرخت وعبرت وأنا الذي لم أكمل عامي العشرون كنت قابعاً مختبئاً في غرفتي، كنت أسمع وأري في شاشات التليفزيون الملايين ومشاهد الغضب وقبل أن أفرح لما يفعلونه كنت أحزن علي ذاتي، ذاتي المنكسرة دائماً وأبداً ولا أعلم لماذا، كنت أتحسر علي ما أنا به وأقول لذاتي، أيعقل أن أكون جبان لهذه الدرجة المخزية..؟!

كنت أبحث لنفسي عن مبرر، لكن لا، لا يوجد مبرر لهذا الضعف وهذا التنطع، أنا دائماً ما أبحث لنفسي عن تلك المبررات السخيفة وأنا أعلم أنها غير موجودة، الجبناء أمثالي هكذا، أناس لا قيمة لهم ويفكرون بطريقة مثلهم لا قيمة لها.. !

عزائي الوحيد كان حازم، أخي الأكبر ومثلي الأعلى وهو أيضاً أيقونة المظاهرات والوجه الأول دائماً لها، شباب كثيرون اعتبروا حازم القائد الملهم لهم، وحازم فعل ما يجعلهم يعتبرونه هكذا..

نضال « حازم « لم يبدأ مع حدوث المظاهرات، بدأ منذ صباه كما قلت، كرس حياته للدفاع عن مبادئه وما يؤمن به من حريات، حازم شجاع ولا يستحق أن يكون له أخ جبان مثلي وأنا أيضاً لا أستحق أن يكون أخي هذا البطل النقي، هو طاهر حر، وأنا مجرد وصمة عار لا تستحق الذكر أساساً.. !

***

يؤسفني أن أقول هذا، لكنها الحقيقة، كنت أنا في غرفتي المظلمة أرتعش خائفاً وغيري فاتحاً صدره يستقبل الرصاص أملاً في حياة جديدة وحرية حقيقية، كنت أدعي المرض حتى أهرب من إلحاح أمي بالنزول والاطمئنان علي حازم في الميدان، كنت أعلم أن الأجواء مشتعلة والأحداث لم تبدأ والوفيات والإصابات بالجملة وأن حازم في قلب كل هذا لكنني لم أتخل عن ضعفي اللعين.. !

أبي في هذه الأيام كان مرتبكاً للغاية ما بين خوفه علي حازم ورهبته مما يحدث وقلقه علي كل ما هو قادم، وفي لحظة تهور قال، لم يعد لي ابن اسمه حازم، ليتهم يقتلوه كي أرتاح..!

قتلتني كلمات أبي قبل أن تقتل أي شيء آخر، لماذا أبي هكذا ؟! لماذا ضعيفاً خانعاً ؟ لماذا لا يفخر بابنه ؟ ولماذا لا يري الحق ؟!

لماذا يا أبي أنت دائماً هكذا رمزاً للخذلان والضعف..؟!

***

لا تندهش كوني أهاجم أبي، أنا لا أهاجمه حتى لا تفهم ما أقصده خطأ، سبق واعترفت أنني ما يستحق الكره واللعنات وليس أبي، لكنى أتعجب من أفعاله، وأعلم أنك الآن تتعجب من كلماتي أنا، أنا الأحق بالتعجب والهجوم، عذراً، أنا أبحث عن علاج.. !

أنا تأكدت من كوني وصمة عار عندما شاهدت كيف تم القبض علي أخي، شاهدت كل شيء عبر مقطع فيديو علي أحد مواقع الانترنت.. !

كنت كالفأر المذعور وأنا أشاهده، ووقتها فكرت في الانتحار لأول مرة، كنت كالمصعوق عندما استقبلتني فضاءات الساحات الالكترونية وشاهدت وقرأت واستنتجت أن حازم أيقونة الثورة قد تعرض للسحل والاعتداء عليه، كان المشهد بشعاً مؤلماً، وشعرت بأنني بحاجة للتقيؤ، مجموعة ملثمين يخترقون حازم وأصدقاءه وينتشلونه من بينهم وتنهال عليه الضربات بشكل احترافي، ما حدث تم الترتيب له، التصوير كان مميزاً ومن أكثر من زاوية،

ولم تجد مقاومة حازم طريقاً لها وسط أجسادهم الضخمة، انهالوا عليه بالصفع ومزقوا ملابسه وسحلوه علي الأرض عارياً ثم قام قذر منهم بجرحه في مؤخرته أمام الجميع وفروا هاربين.. !

قبل انتهاء الفيديو سقطت مياهي داخل البنطلون.. !

ألم أقل لك، أنني مجرد وصمة عار لا تستحق الذكر.. !

٢٧

انتشر الفيديو بسرعة انتشار الفساد في بلد يمتلك ثروات كبيرة ومع ذلك بلد متخلفة وأهلها فقراء، انتشر الفيديو فبكيت كثيراً، ولكن ما جدوى البكاء.. ! شاهدت الملايين أيقونة الثورة ومؤخرته تنزف أمام الجميع، دفع حازم ثمناً مؤلماً، وأصبح الفيديو الأكثر مشاهدة علي كل المواقع، بكيت كثيراً، ولكن ما جدوى البكاء.. !

توقعت أن تنتفض الناس وتثور علي هذا الحادث البشع، توقعت أن ينفعلوا، وأن تنقلب الأحداث رأساً علي عقب، لكن لم يحدث شيئاً.. !

كل الذي حدث أن بيتنا التعيس تحول لبقايا زلزال انفجر وعصف بكل شيء، بكت أمي وسقطت مغشياً عليها وظلت تصرخ دون أن يحاول أحد تهدئتها، وكتمت أمنية بكاؤها بيدها ورحاب مثلها، وانسحب حسام من البيت كما اعتاد أن يفعل وبقيت أنا صامتاً، لا أصدق ما أراه وما يفعله أبي، أبي الذي صرخ كالنساء وظل يهذي ويلعن ويضرب وجهه بيده، ثم فتح النافذة وظل يقول : هذا الكلب ليس ابني، هكذا الكلب ليس ابني، أنا برئ منه، أنا برئ منه.. !

***

لماذا تفعل ما تفعله يا أبي..؟!

لماذا تختار أن تكون الطعنة الأخيرة في قلب ابنك المظلوم ؟

لماذا يا أبي..؟!

لماذا لا تري الظلم ككل البشر ؟ لماذا لا تثور مثلهم ؟ لماذا تستكين خلف

الصمت ؟
لماذا تتبرأ من ابنك الذي أشعل النيران في تلال الأوجاع التى تحاصرنا ؟ لماذا تتبرأ من شاب نظيف خرج يبحث عن حياة آمنة مستقرة عادلة ؟ لماذا ؟
لماذا يا أبي..؟!
لماذا أنت مثلهم جلاداً ظالماً ولو بصمتك ؟ لماذا لا تحارب من أجل النور ؟
لماذا تعشق العبودية ؟
قل لي يا أبي من فضلك، لماذا أنت هكذا ؟
قل لي قبل أن ألعنك وأكرهك..
قل يا أبي...

٢٨

ساد الهم والصمت البيت، لم يكن هماً، بل كانت هزيمة مخزية، كان انكساراً جديداً وحقيقياً، وانقطعت بعد ذلك الأخبار والاتصالات، انقطعت وليتها قطعت مبكراً قبل أن تنال منا تلك الهزيمة كل شيء، واضطرب الوضع وصارت البلاد علي شفا حفرة من السقوط في النيران، واختفي حازم اختفاء تام ولا أحد يعلم عنه شيئاً، بل ولم يجرؤ منا أحد حتي علي السؤال عنه، ونحن نعلم أنه في أشد الحاجة إلينا ويجب إسعافه، لكن أبي كان قطع كل الخيوط، وقال لو كان ابناً اسمه « حازم « فقد مات.. !

وهنا لابد أن أصارحك بشيء مهم رأيته في تصرفات وعيون أبي وهو يتصرف ويقول ما قاله، أبي كان منكسراً حزيناً مثلنا بل أكثر مننا، أنا تأكدت من ذلك، صوته كان مشروخاً كأنه يُذبح، لكني لم أعرف لماذا فعل ما فعل وقال ما قال..؟!

كنت أمعن النظر في أبي وهو يتحدث، رأيت أن هذا مهماً، أبي كان يبحث عن شيء لا يعرفه، ربما كرامة أُنتهكت، أو عرض شعر بضياعه، أو خوف من عقاب قد يصيبه، أبي مثل بلاد تُهان وتظلم، لكنه ينكر ويتخطي الأمر، كان

Obeikan.com

يعتقد أن هذا شموخاً لكن هذا ضعف، أبي مظلوم لكنه يقوم بدور الظالم علي أكمل وجه.. !

***

لم ينتزعني من آلامي إلا صرخة أمي المفزعة المنذرة بألم جديد، صرخت أمي وقالت « فارس « اختفي.. !

كانت طعنة جديدة لم يكن يتوقعها أحد، نعم نسي الجميع فارس بعدما استحوذ حازم وما يحدث له علي كل الاهتمام، قلت ما الذي يحدث ولماذا تنهال علينا المواجع هكذا، الرحمة بنا يا أرحم الراحمين..

أيعاقبنا « فارس « بهروبه لتقصيرنا نحوه، قلت هذا، لكني لا أعتقد ذلك، فارس أكثرنا رحمة وأكثرنا تعاطفاً مع حازم رغم عدم نطقه ولو بحرف ورفضه مشاهدة الفيديو، إذن لماذا قرر الهروب، ولماذا اتخذت أنا حكماً بأنه « هروب «..؟!

ظلت أمي تصرخ وأنا وأبي وحسام نبحث عنه في كل مكان دون أن نجد له أثر، لعل هذا جعلني أتسرع في تسمية غيابه المفاجئ « هروب «، دائماً أنا متسرع هكذا، قلت لأبي الباكي فلنهدأ قليلاً لعله يعود، الأمر لم يصبح مزعجاً حتى الآن، لم يمر علي غيابه أكثر من ساعتان، نهرني أبي وشتمني أمام الجميع في الشارع، فأكملت وأنا صامتاً.. !

***

مرة أخري يؤكد لي أبي أنه في واد والعالم في واد آخر، أبي يستحق الشفقة واللعنات وكل ما يحدث له، إنسان عجيب، قلت ليس هذا المهم الآن، فارس أهم، حازم أهم.

لم يصدق قلبي أن فارس قد قرر الهروب، فزعي وقلقي كانا من مرضه، فمنذ أن رفضت المدرسة قبوله وفارس يعاني شيئاً عجيب، بل أشياء عجيبة.. !

كانت تنتاب فارس نوبات سعال قوية ومتواصلة وما أن تنتهي حتى تبدأ أنفه في رشح دماء بكثافة وهو هادئاً صامتاً ينظر إلي دماؤه المسالة عليه

دون أن يأبه بشيء.. !
أفزعنا الأمر في البداية، وذهبنا به لأكثر من طبيب دون فائدة، لم تأت الأدوية بأى علاج يذكر ولم تنته الحالة ولم يتغير شيء سواء بالإيجاب أو بالسلب.. !
كان أنفه تستمر في النزيف حتى تغرق ملابسه بالدماء وننتبه نحن لمجيء النزيف وبمجرد هرولة أحد نحوه، يرفع فارس رأسه نحو القادم إليه ويبتسم فيتوقف النزيف فوراً..!
في البداية قلنا بالتأكيد ما يحدث صدفة بحتة، ما علاقة محاولة إنقاذه وابتسامته بتوقف النزيف، وبناءً عليه قرر أبي أن يبقي فارس تحت أعيننا طول الوقت، لكن لم يتغير شيء، كانت بمجرد أن يلهو الجميع عنه ولو لحظة يبدأ النزيف ولا يتوقف إلا برفعه لرأسه والابتسامة..!
احتار الجميع وحاولنا التفسير لكن دون جدوى، انهزمنا كالعادة وتقبلنا الأمر واعتادنا عليه كم هو.. !
لكن ومنذ اليوم الأسود – الذي حدث ما حدث فيه لحازم – لم ينزف فارس ولو مرة ، سمع ما حدث في الفيديو ولم يشاهده، ومن وقتها لم يعاوده النزيف مرة أخري، من انتبه لذلك انتابته فرحة وقال تم شفاؤه أخيراً، لكني لم أقل ذلك، هذا أقلقني، وهذا ما يقلقني علي غيابه، وهذا ما جعلني أتحمل شتيمة أبي.. !

٢٩

سأقول الحقيقة بكل تفاصيلها :
تتبعت حدسي هذه المرة – أول لأول مرة – وتركتهم يبحثون عن فارس وذهبت إلي الساحة المملؤة بالمتظاهرين، لا تسألني لماذا توقعت ؟ ولماذا أصاب توقعي ؟ أنا شخصياً لا أعلم، كان الغضب هو سيد الموقف في هذه الساحة، الهم يأكل كل الوجوه، لم أبحث عن فارس كثيراً، وجدته في الصف الأول، هيئته وصوته ساعداني في الوصول إليه، كانت البلاد كجمرة مشتعلة،

قالوا انه يوم الغضب، وكان وصفهم دقيقاً ومناسباً، فارس جاء يبحث عن حازم، والفوضي تسيطر علي كل شيء وقلبي انقبض، لم أدرك وقتها ما المفترض أن أفعله ؟ ومما الذي يحدث ؟ ولماذا يحدث أصلاً..؟!

لم يستوعب عقلي شيئاً وقتها.. !

كان هدفي فقط الاطمئنان علي فارس، ووجدته لكني لم أطمئن، تهلل وجهه عندما رآني لكنه سرعان ما عاد لتجهمه مرة أخري، وقبل أن أقول شيئاً باغتتني بقوله : حازم هنا..!

صعقتني الجملة وفرغت فمي ولم أتحدث.. !

نظر فارس لي نظرة يملأها الغضب واقترب منى ثم لكمني بقوة في صدري وقال : حازم هنا..!

ثم سقطت منه دموعه.

***

لم أجد ما أقوله لفارس، بقيت صامتاً لكنى اقتربت منه واستجمعت شجاعة لا أعرف مصدرها كي أضمه لحضني، كانت المرة الأولي التي أضم فيها فارس لحضني منذ ميلاده..!

المشهد كان مؤلماً ولفت انتباه كثيرون ممن في الساحة، وتعاطف كثيرون مع فارس كأنهم يعرفونه ويعرفون حازم ويعرفون ما حدث.. !

***

من لطف رب العباد بنا أن الطلقات توقفت فجأة مثلما انهمرت فجأة لكنها نالت بعض الموجودين وزادت من المأساة وامتلأت الساحة بالدماء.. !

قمت مفزوعاً من مخبئي أبحث عن فارس وقلبي يرتجف، كنت أفكر كيف سأقتل نفسي لو وجدته مقتولاً، كنت سأنتقم من جُبني وضعفي، لكني وجدته يجلس باكياً وملابسه ممزقة، يبدو أنه تعثر كثيراً ودهسته أقدام كثيرة أثناء الكر والفر، لعنت نفسي كثيراً في هذه اللحظة، وشعرت بمرارة لم أعرف لها مثيل من قبل، واقتربت من فارس مجدداً محاولاً ضمه كحضني

مرة أخري لكنه رفض ولكمني بضيق واحتقار دون أن ينطق بكلمة.. !
معه كل الحق، أنا ألوثه إن اقتربت منه.. !
وجلست بالقرب من فارس أنظر إليه، كنت أتمنى أن أبكي مثله، لكنى لم أستطيع، تخيل، كنت أتمنى أن أكفر عن قذارتي بالدموع لكني لم أستطع، مات الإحساس بداخلي وأنا لا أدري، مات ولا تسألني من قتله وكيف ؟
أنا لا أعرف شيء، أقسم لك أنني لا أعرف شيء، فلا تقسو علي من فضلك.. !
قلت لنفسي ما الذي يحدث ؟ لماذا ؟ أنحن في وطن أم في كابوس وسينتهي وسأجد أمي تجهز الإفطار لأبي قبل ذهابه لعمله ؟!
قلت وأنا أكاد أهذي وأتمنى البكاء، الدموع وسام لمن يمتلك الإحساس، وأنا عار ورفضت أن أدنسها.. !
يا أمي من فضلك اضربي باب غرفتي بقوة واجعليني أستيقظ، أنا لا أطيق ما أنا فيه.. !

***

وفي أقل من دقيقة انقلب كل شيء، انتظم المئات الموجودون في الساحة في صفوف كبيرة، وبدأ هتاف بشكل قوى، كانت الأجواء حماسية ثورية لم أعشها من قبل، فارتجف جسدي وأصابتني رعشة قوية شعر بها فارس فابتعد عني مسرعاً وانضم لهم، أصابني الأرتباك وكأني في حلم، لا أعرف ما الذي يحدث والذي سيحدث..؟!
لكني ظللت أنظر لفارس وأتابعه خوفاً عليه، وهو الآخر بدا لي كإنسان لا أعرفه، يتصرف بشكل طبيعي ويقف في الصف الأول مع المتظاهرين الغاضبين كأنه منهم، أسعدني هذا لكن قلقي كان يتزايد خاصة أن الهتاف يزداد بقوة، وشعرت بأن كارثة تأتي في الطريق، لكنى كنت أضعف من أتصرف، كنت بلا حول وبلا قوة كالعادة، وبقيت صامتاً أرتعش في مكاني.. !
اضطربت الأجواء فجأة وانهالت الطلقات النارية علينا من كل مكان، كانت متفرقة ومن أماكن مختلفة وبشكل مباغت، لم أستطع تحديد مصدرها،

obeikan.com

وبدون كذب، الخوف كان امتلكني وكدت أموت رعباً وكنت أبحث عن الفرار، وكنت سأفعل إن وجدت طريقاً، لكني لم أجد.. !

أعلم أنك ستقول أني خائن جبان، بضعة طلقات نارية جعلتني أفكر في الهروب وترك أخي الصغير المريض يواجه الموت وحده، أعلم أنك ستقول ذلك، ولك الحق أن تقول، لأنني فعلاً هكذا، لكنى لست خائناً، أنا جبان وضعيف مهزوم لكني لست خائن، الخيانة شيء قذر، وأنا لا أحب أن تلتصق بي هذه الصفة، يكفيني ما بي.. !!!

٣٠

الوقت كان يمر ثقيلاً قاتلاً لا يرحم أحد، خاصة علي الجبان الوحيد الموجود في الساحة وهو أنا، رويداً رويداً هدأت الأجواء وقلت الأعداد الموجودة، الدماء أوجعت كل شيء، لكن الباقيين ظلوا كفارس ملقيين بأنفسهم علي الأرض بانتظار شيء يحدث، فارس كان ينتظر قدوم حازم، هكذا قال، لكني لا أعلم من أين سيأتي..؟!

لكني لم أكن أجرؤ علي سؤاله، أعتقد أن فارس لن يدنس لسانه بالتحدث معي، وظللت جالساً بجواره أتابعه وأتابع كل شيء يحدث، وعندما قام فارس من مكانه قفزت أنا، قلت سيعود للبيت، أسعدني هذا، كنت أحتاج لغرفتي بشدة، نظر فارس لكل الموجودين في الساحة، ومسح بكفه دموعه، وذهب للمكان الذي قُتل فيه أول شاب، وانحني علي الأرض وقبل الدماء الملقاة علي الأرض.. !

ارتعشت مرة أخري ولا أعرف لماذا ؟ لم أفهم ما الذي يفعله فارس، لكنه كرر نفس الفعل مع كل بقعة فيها دماء، وأدركت انه يقبل الدماء، وأجهش بالبكاء بشدة لفتت الأنظار حوله فتجمع حوله عشرات الشباب المكلومين مثله، وأنا بعيد عنه لا أجرؤ علي الاقتراب منه، لكنه شاهدني وأنا أسير خلفه.. !

جلس فارس وسط الشباب المتجمعون حوله، وهدؤوا من روعه، وبدؤوا

بالتحدث معه، أدركوا إعاقته ومرضه ومدي إحساسه، سمعته يقول لهم، حازم هنا وأنا في انتظاره !، كانت مفاجأة لهم ولي، لم أستطع وقتها أن أدرك ما هي « الهُنا « المقصودة، تبين أنهم يعرفون حازم، وتضامنوا معه بل وفرحوا به عندما أخبرهم أنه أخيه الأصغر، وقتها فكرت في الرحيل، قلت لا مكان لي هنا، ماذا لو أخبرتهم بأني من ترك أخيه المعاق عندما شاهد الرصاص، وماذا لو أخبرتهم أن حازم البطل أخ لجبان خائن..؟!

كنت علي وشك أن أتخذ قراري بالرحيل قبل أن أفسد جمال الصورة المكونة من فارس وحازم لكن فارس صرخ بصوته الواهن وقال : « أريدك بجانبي يا علي.. «

نعم أنا « علي «.. اسمي « علي «

لم يصدق عقلي وقلبي وكل ما بي، لم أصدق أن فارس يحدثني ويطلب مني البقاء بجواره، فرحت كفرحتي الوحيدة يوم مولده..

أول مرة أتذوق معني الدفء.. وأندم علي كل شيء في نفس الوقت.. !

***

جلست بجوار « فارس « والسعادة تغمرني، كأنني نسيت أين نحن ؟ وماذا يحدث ؟ وما هي الأجواء المحيطة بنا ؟

لم أكن أريد أن يشغلني شيء عن فرحتي بأن فارس طلب منى البقاء بجواره، والنداء كان باسمي عالياً وواضحاً، لا تسألني لماذا فرحت كل هذه الفرحة، أنا أصلاً لم أستطع أن أصف لك مقدار فرحتي.. !

كان فارس وسط العشرات من الشباب الموجودين مثلنا في الساحة وفي الميادين وفي كل الشوارع، كان التجمع أشبه بالمظاهرة أو اعتصام، أقول « أو « لأنني لم أكن أعرف الفرق بينهما..!

كان كل هذا بالنسبة لي مجرد مسميات كبيرة أخاف منها واخشي حتى نطقها.. !

نعم هذه الحقيقة، فلا تستهزأ بي، فماذا تتوقع من جبان ضعيف مثلي..؟!

لكني اجتهدت كي أداري ضعفي هذا في فرحتي بالجلوس بينهم، وأعتقد أنني نوعاً ما نجحت في هذا، بدأ شاب قوى البنيان بالهتاف وردد الباقين خلفه في عنف وقوة، هتافهم كان يزلزل الأرض من تحتنا، وبالطبع لم أكن أردد أو أنطق بشيء، أتوقع أن تسأل في هذه الجزئية، لذلك أعترف لك، حتى الهتاف خلفهم وأنا وسط المئات، كنت أخشاه.. !

كنت خائف وسط أجيال لا تعرف الخوف، كنت جبان وسط أبناء الشجاعة، كنت النقطة السوداء في الرداء الأبيض الناصع.. !

لكن، لم يلاحظ أحد هذه النقطة المخزية واستمر الهتاف واستمرت المظاهرات.. !

***

في هذه اللحظات انقلب علي الوقت بلعبته الماكرة، لم تمر ثقيلة وكبيرة كلحظات خيانتي وضعفي، بل كانت تنساب في جرأة وشجاعة ككل شيء حولي وكصانعي الحدث، وفوجئت - أنا فقط - بأن الساعات تمر وأن الشمس في طريقها للغروب ونحن هنا منذ الصباح الباكر..

هدأت قليلاً حدة الهتاف، وبدأت المشاورات والاختلافات في الآراء، كنت أتابع بشغف وكنت أتمنى العودة لغرفتي في أسرع ما يمكن، كنت أحتاج لغرفتي، غرفتي وحدها من تستطيع تحمل ضعفي وخيانتي، لكنهم لم يتحركوا بل كانت الأعداد تزداد والأوضاع تضطرب أكثر بل وتنذر بكارثة.. !

وانتبهت أن فارس اختفي من حولي، فقمت مفزوعاً أبحث عنه حتى وجدته يجلس علي الأرض في ركن في بداية الساحة ووجهه للشباب الغاضبين كأنه سيتحدث إليهم، لكنه لم يتحدث وظل يبكي في مرارة، وبجواره شاب يعزف علي ناي لحناً حزيناً.. !

***

اللحن كان مثيراً للشجن بشكل كبير، قلت لنفسي : ما هذا..؟!

وسط كل هذا الغضب وهذه المظاهرات يأتي شاب ويعزف.. !!!

فكرت أن أقترب من فارس وأتحدث معه، لكنى تراجعت، كان فارس منتبهاً كأنه يصلي، قلت بالتأكيد يحمل ويعني شيئاً لا أعرفه، وما يحدث لا أفهمه.. !

ووقفت صامتاً لعلي أدرك شيئاً، واستمر الوضع كما هو، إلي أن قام فارس ووقف وجهاً لوجه مع الساحة وأنفاسه تلهث من كثرة البكاء، وهنا انتبه كثيرون من الموجودين ما يحدث وزحفوا جميعاً نحونا وأصبح الجميع يشاهد فارس يبكي والشاب مازال يعزفه لحنه الحزين، وعندما اقتربت منه قال لي : أنا أغني لحازم.. !!!

٣١

لا أتذكر ما الذي حدث بعد ذلك، صدقني لا أتذكر شيئاً، لا أعلم هل لو أقسمت لك ستصدقني أم لا ؟، هل جبان ضعيف مثلي يجوز له أن يُقسم أم لا ؟، لا تظلمني من فضلك وتقول أن حدث شيء أخاف من قوله أو أتهرب من الحديث عنه، صدقني لا، أنا قلت لك كل ما يفضحني ويكشف مدي انحطاطي وضعفي، تأكد من ذلك، أنا أحتاج للصدق الآن، أنا لا أكذب عليك، فأنا أريد الخروج مما أنا فيه، وأنت بالنسبة لي آخر أمل، لذلك لا أكذب عليك.

كل ما أتذكره ومتأكد منه أنني فجأة وجدت نفسي في غرفتي وعلي فراشي، لا أخفي عليك مدي فرحتي بذلك، قلت لك كنت أحتاج بشدة بل كان أملي الأكبر في هذه اللحظات العصيبة، وعندما أفقت من نومي ومحاولتي إخفاء فرحتي بكوني علي فراشي، سألت نفسي كل ما تسأله أنت الآن، كيف عدت لفراشي بعدما كنت مع فارس في قلب الساحة، آخر شيء تذكرته أن فارس كان يهذي أو يغني كما قال، كان يبكي بمرارة معتقداً أن حازم يسمعه، بالنسبة لي كانت لحظة مريرة لا أريد أن أتذكرها، لكنني مجبراً كي أعرف ماذا حدث وكيف عدت ؟ وأين حازم وأين فارس..؟!

***

خرجت من غرفتي وأنا أعاني، لم يكن الخروج سهلاً، لا يوجد خروج سهل علي الإطلاق، بمجرد أن وضعت قدمي خارج الغرفة هرولت إلي « أمنية » واحتضنتني وقبلتني وهي تبتسم، لا يوجد في حياتي من هو أكثر من أمنية طيبة ونقاء وإحساس، أمنية هي الطيف الجميل في تلك الحياة التعيسة، قالت بابتهاج، حمد لله علي سلامتك يا علي، فكرت أن أسألها عن ما حدث لكني تراجعت، والسبب الحقيقي أن هذا مجرد هروب والسبب الظاهري أنني لم أكن أريد إفساد فرحتي بقبلتها ونطقها اسمي، كنت أحتاج لهذا الدفء لعله يعوض جذعي واضطرابي، وبنظرة سريعة لبيتنا الكئيب الخاوي، أدركت أن الحزن مازال محتلاً لكل شيء، أمي ترقد مريضة وبجوارها رحاب، وحسام كالعادة غائباً، وأبي أمام شاشة التليفزيون يتابع ويلعن الكلاب الموجودة في الميادين تخرب البلد وتنفذ المؤامرات.. !

لم يلتفت أبي حتي لمجرد رؤيتي، ولم أكن أريد رؤيته بكل أمانة، لم يزعجه أن ثلاثة من أبناؤه كانوا علي وشك الموت، أزعجه فقط أن الكلاب نزلت الميادين لتخرب البلد، قلت وقتها لنفسي، أنت يا أبي مثل هذه البلد، لا أمل فيك، وقلت لأمنية، أين حازم وفارس ؟

فأشارت لغرفة حازم وسبقتني ودخلت وبمجرد رؤيتي لحازم الملقي علي فراشه، ارتعشت وسقط مني البول داخل بنطلوني.. !

***

أمنية لاحظت ارتباكي وما حدث لكنها لم تود إحراجي وتغافلت، تمنيت البكاء أيضاً لكني لم أستطع، أنا أتمنى البكاء ومع ذلك يرفض البكاء أن يمنحني الراحة من خلاله، تراه يعلم أنني لا أستحق..؟!

حازم كان جثة هامدة لا ملامح لها، البكاء كان حازم، وجهه متورم وعينيه غائبتين داخل الكتل السوداء والزرقاء، وكل مكان به أثر لجرح غائر، قلت تستحق الإشادة والفخر يا حازم، لكن كيف وعلي بعد خطوات من يقول أنك من ضمن كلاب يجب سحقها ؟ وكيف وأمامك أيضاً خائن جبان..؟!

كيف..؟!

***

بعد ذلك كان لابد أن أنصرف، قلبي كان يموت كمداً، ونظرت لأمنية نظرة لا أعرف لها معني، فكنت أشبه بالغريق، وبعدما اتخذت أول خطوة نحو الباب للخروج، عدت وأمعنت النظر لفارس الجالس بجوار حازم، فارس يقرأ القرآن من مصحف كبير، اندهشت، فارس لم يتعلم القراءة أصلاً، فكيف له أن يقرأ..؟!

لكني لم أسأل وابتسمت، بات بيني وبين فارس حاجز كبير صنعته بضعفي وخيانتي، لكن قبل أن أنصرف قرأ فارس كعادته ما بي فترك المصحف بجانبه ونظر لي وقال في جدية :

أريد ناي.. !

تعجبت الطلب، لكني قلت في ثقة : لا أملك « ناي «

فقال : أريده حالاً.

فقلت : لا أعرف أين يباع ولن أستطيع النزول الآن..!

فقام ولكمني في صدري بعنف وقال : متى ستكون بني آدم..؟!!!

فتركته وانصرفت وأنا أتمنى البكاء لكني لم أبك.. !

٣٢

استمرت غيبوبة حازم شهوراً، لم تكن غيبوبة بالمعني المفهوم، فقد كان واعياً مدركاً ما يحدث أغلب الوقت، لكنه لا يغادر فراشه إلا لقضاء حاجته، وكل هذه المدة وفارس لم يتركه إلا لنفس السبب.. !

واستقر الوضع علي هذا الشكل، فارس الذي لم يتعلم القراءة، يقرأ القرآن الكريم بجوار معظم أوقات اليوم، ثم يبدأ العزف علي « الناي « في النصف الأخير، رغم انه لم يتعلم العزف أيضاً.. !

في هذه الآونة استعدت الكثير من ثباتي مرة أخري، خاصة بعدما اتخذت قراراً قوياً ساعدني علي هذا وهو ألا أدخل غرفتهما، أنا لا أريد أن تسقط

مياهي بداخلي مرة أخري..!

كنت بمجرد رؤيتي لحازم علي فراشه ينتابني شعور بالخزي والعار، كنت أري أنني سبب فيما وصل إليه من معاناة، لذلك اتخذت قراراً بالهروب، والهروب هو الشيء الوحيد الذي أجيده إجادة تامة، خاصة أن فارس ومنذ تكاسلي أو رفضي مساعدته الحصول علي ناي وهو يرفض حتي النظر إلي أو التحدث معي، هذا كان يؤلمني ويزيد من مقدار احتقاري لنفسي..

نعم، أنا أحتقر نفسي، وهذا اعتراف.. !

وعلي ما يبدو أن هذا العالم الملوث يبغي هذا ويمجد هؤلاء، يلعن الطيب ويهدر حق النقي ويقتل الطموح ويبتسم للمنافق ويتحدث مع الجاهل.. !

أنا ابن هذا العالم الملوث، ومع ذلك لم ابتسم ولم أنجح ولن أتحدث.. لكنني مثلهم حقير.. !

ودليل جديد علي ذلك أنني في وقت معين تمنيت أن ينتهي أجل حازم، كنت أتمنى أن يفارق الحياة لعل أشياء أخري تفارقنا، لكن حازم لم يمت وعاشت خيانتي وضعفي، ولا أعلم لماذا..؟!

***

أرجوك، لا تتعجب شيء مما أقول، ولا تهزأ بي من فضلك أو تشكك في قواي العقلية أو تكذبني، أنا بخير وأقول الصدق ولا أخفي عنك شيئاً، ما أقوله هو كل شيء، ولا تندهش بالقفزات الكبيرة في الأحداث، هذا ما كان يحدث بكل دقة، لا يد لي فيما حدث أو سيحدث، لو هناك شيئاً يقال، قطعاً سأقوله، أنا أحتاج القول، احتاجه كي أستريح وأجد علاجاً ينتشلني مما أنا فيه، أنا مسجون في مكان لا يمكن لك أن تتخيله... !

***

بعد تلك الشهور التي حدثتك عنها، عاد حازم لمزاولة نشاطه، فجأة وبدون مقدمات، قال انه سئم رقدته وانه بات بحالة جيدة، فرحت أمي وأمتعض أبي، أمي تهلل وجهها أخيراً وأبي عاد للقلق، أبي لا يحب حازم، هذا واضحاً

علي الأقل بالنسبة لي، وعندما شاهدت حازم يخرج ويقرأ من جديد انتابتني حالة سعادة، وندمت علي شعوري السلبي وتمنى موته، من يتمني موت أخيه، حقير، وأنا فعلت هذا.. !

حازم وكأنه يشعر بخيانتي هذه ومنذ أن عاد لنشاطه لم يعد يحدثني إطلاقاً، أزعجني الوضع في بدايته لكني استسلمت له فيما بعد، أنا أضعف من المواجهة، بأى وجه أواجه حازم وطهارته وأنا الملوث بكل ما هو قذر..؟!

لذا انسحبت وبقيت أتابعه من بعيد، كان حازم مختلفاً وكأن شيئاً أصابه، بات صامتاً أغلب الوقت، نادراً ما يبتسم، قليل الحركة والقراءة، كثير الغياب خارج البيت، هذا أقلقني عليه خاصة أن البلاد لا تزال مضطربة والضباب هو سيد الموقف، كل شيء حتى هذه اللحظة كان يمكن أن أصدقه أو أتفهمه عدا أن يقف حازم ويعلق علي حادث بشع راح ضحيته عشرات المتظاهرين قائلاً : يستحقون الموت.. !

***

سقط حازم من نظري، كانت لحظة لعينة، حازم مات لكنه مازال يتنفس، مازال يصفق للباطل، كان لابد أن أقول له، أنت من يستحق الموت، أنت الخائن يا حازم، لا أنا ولا هم.. !!!

٣٣

بعد يومان واجهت نفسي، حازم الأحق بالمواجهة، كنت في أشد الاحتياج لمواجهة قد أري بعدها النور الغائب عني دائماً، قلت بالتأكيد سأصل لشيء ما، واستجمعت قواي، ولا تتعجب فالجبناء أيضاً لديهم بعض القوة، واقتحمت غرفة حازم وقلت له :

أنا جئت، لا لأتحدث معك، ولكن لإخبارك بأنك قد سقطت من نظري للأبد..

نظر إلي كأنه يراني لأول مرة ثم قال بهدوء :

ماذا يساوي نظرك أساساً، لا أنت ولا نظرك شيئاً بالنسبة لي.. !

ماذا حدث لك كي تتغير هكذا ؟
رأيت الحقيقة.
وما هي الحقيقة التي تجعلك تبيع مبادئك وتخون أصدقائك وتدهس بقدمك ثوريتك ووطنيتك ؟!
الحقيقة أن كل ما قلته مثلك.
مثلي أنا ؟
نعم.
كيف ؟
بالنسبة لي كل هذا لا شيء.
بهذه السهولة ؟
هراء وكنت غارقاً فيه.. !
الآن، أشعر بالعار كونك أخي..
وبماذا شعرت من قبل ؟
كنت أري فيك مثالاً للبطولة والحق..
لذلك تركتني أموت وكنت تتمني موتي..!
نعم، أنا ضعيف، لكني لست خائناً مثلك..
الحياة هنا للخائنين.
ليت الموت قد نالك قبل هذه اللحظة..
أشكرك يا علي.
لا تلوث اسمي بلسانك.. !
كما تحب، وعموماً كل الأسماء كما قلت لك، لا قيمة لها، كل شيء ملوث يا أخي وليس لساني فقط، سأترك لك حرية أن تري الأشياء كما تحب، أنا لم أفرض عليك رأي من قبل ولن أفعلها الآن، الحياة قصيرة جداً ولا مجال لإقناع الغير بأشياء لا قيمة لها أيضاً، ستري كل شيء لكن في الوقت المناسب وستشاهد الظلام قبل النور، الظلام له من يحبه، وأحياناً يكون الاختيار

obeikan.com

الأفضل، أنا اخترته وعن اقتناع يا أخي..
يا ليت الموت قد نالك قبل أن أراك وأنت تقول هذه الكلمات.
أشكرك يا علي.
قلت لك لا تلوث اسمي بلسانك القذر.. !

obeikan.com

-٣٤-

مرة أخري أؤكد لك، أنا لا أكذب، وعقلي بخير، ما قلته صحيح وحدث بالفعل، نعم، واجهت حازم، ودار بيننا ما قلته لك وبكل دقة.

أنا كنت أتحدث مع حازم خائفاً، قوة الكلمات كانت كاذبة، لم أكن يوماً شجاعاً وغالباً لن أكون، كنت أري أنني قد أحقق انتصار، أي انتصار وعلي أي شيء، ولو علي جسد لشخص آخر قد مات.. !

بعد أول جملتان في الحوار، بدأ يرتعش بعنف، خشيت أن يشعر حازم بذلك، تحاملت علي نفسي كي أخفي ما بي واستمرت اللعبة، بعد أن تجمد كل شيء بي، وجدتني قوى وأنا لم أعتاد القوة من قبل، ولذلك خرجت الكلمات ثابتة جارحة كأنها رصاصة تعرف هدفها الوحيد، لم أكن أحاسب حازم، حازم أكبر من أن يقوم ضعيف وخائن مثلي بمحاسبته، حازم بطل وإن ضل الطريق بعض الوقت، في عيني حازم قديس وإن أخطأ، واقتناعي هذا كان بكل أسف سلاح استخدمته ضد حازم، استخدمته لأنه يعلم كم أنا ضعيف، أنا لم أفرح بتجاوزي في حق حازم وأمامه، لأنني لم ولن أهزمه مهما فعلت، أنا كنت مجرد مريض يحاول علاجه بمزيد من الجروح وبيده، اتهمت حازم بالخيانة، وهذا في حد ذاته جنون وسخف، خائن يقل وفي، أعمي يتهم الناس بالبصر..!

أتذكر وأقول لك ما حدث وأنا أشفق علي ذاتي، أتعجب نفسي، أنا وبكل تصرفاتي القذرة ومواقفي المخزية أقف وأقول لحازم، لا تلوث اسمي بلسانك، ليتني قادراً علي الضحك، لو استطيع لفعلت، حازم الذي قضي معظم سنوات شبابه يعذب جراء أفكاره الحرة ومبادئه ومحاولاته لنشر الوعي ومجابهة الظلم والاستبداد، أنا أقول له، لا تلوث اسمي بلسانك..!

لو هناك جهة تسجل أغرب وأعجب الأشياء والأحداث، لكان حديثي مع

حازم في الصدارة..!

***

غرقت في ندمي كالعادة، ضعفي أضعف من احتوائي، أنفاسي الحارة كانت تلعنني مع كل نفس، لجأت لغرفتي وللظلام، احتمي بها كالعادة، لكن ظلام الغرفة لا يشبه الظلام الذي تحدث عنه حازم، أنا لم أري الظلام الذي يقصده حازم، لكنني متأكداً أن حازم لا يعرف الظلام أساساً، حازم كان يكذب أو يحتضر، لكنه حتماً لا يقول شيء صحيح، الظلام الوحيد في هذا الكون هو ظلامي هذا، هو ضعفي وخيانتي وخوفي من كل شيء، هذه هي الحقيقة، أنا الظلام، وأنا الاستبداد، وأنا الظلم، وأنا الخوف، وأنا الخيانة.. !

حازم بريء وأنا مجرد سجان، سجان أصغر حاول أن يفتك به، محاولتي كانت إرساءً لسياسة ترسخت في دون أن أدري وصرت أعيش بها وتعيش بي.. !

مواجهتي لحازم كانت محاكمة أعددتها لنفسي وأنا غير مستعد لها، محاكمة ظالمة صنعتها بيدي لتليق بخائن مثلي، ومع ذلك شعرت برعشة وكنت خائفاً.. !

ألم أقل لك أنني الظلام ذاته..؟!

الوضع كان مريراً بشكل لا أستطيع وصفه، لم أحتمل فغضبت وقمت ذاهباً لحازم كي أعتذر وأضع كل شيء في مكانه الصحيح، لكن قبل خروجي من الغرفة زادت الرعشة وسقطت المياه مني وسقطت علي الأرض.. !!!

o b e i k a n . c o m

كأن شيئاً لم يكن.. !

سارت الأمور بعد ذلك طبيعية وبهدوء تام، لم يتغير حازم ولم تتغير البلاد، جففت الطرقات من الدماء وانتهي الأمر كأن شيئاً لم يكن.. !

وفجأة وجدنا حازم قد تم تعيينه في وظيفة مرموقة تليق به، أعتقد أن حازم نالها ليس لأنه يستحقها ولكن لأنه تغير فقط، وأصبح مثل كل الموجودين، يقدس ويمجد ويدين ويستنكر بل وجفف معهم الطرقات.. !

ولا أخفي عليك مدي سعادة أبي بهذا التغيير والوظيفة، بات حازم في عين أبي « الشاب الفذ »، أصبح فخوراً بابنه ويباهي الناس به بعد أن ملأ الشاشات بضجيجه وهجومه علي مدبري الخراب.. !

لم أشعر بسعادة ولو للحظة واحدة، كنت أشعر أن الخيانة التي كانت بداخلي ذهبت لحازم، لا أعلم هل يجوز لي أن أقول « كانت » أم أنها مازالت بي وأنا أحاول التنكر ؟!

كنت في حالة ذهول وإن لم أستطع الوصول لماهية ما يحدث، حتي فاجأني « حازم » بخبر توسطه لعملي، أسعدني الخبر، وبالفعل استلمت عملي ومازلت به حتي الآن.. !

اختلفت الحياة بعد ذلك وتهيأ لي بأن الحياة قد ابتسمت لنا أخيراً، ولن يحدث شيئاً بعد ذلك، لن نرتبك أو نخاف مرة أخري، لا سيما أن حازم صار نجماً في الفضائيات.. !

وسألته ذات يوم : أين الثورة والثوار..؟

فضحك وقال : هناك.. !

وتركني وانصرف، وأنا لا أعلم أين تلك « الهُناك « التي يقصدها..؟!

وأنا لم أعاود السؤال أو حتي البحث عن « الهناك « وكأن الإجابة أقنعتني أو كنت أنتظرها، وعدت أستمتع بتلك الحياة الهادئة التي انتهت سريعاً بالقبض علي أبي.. !!!

٣٦

واقعة القبض علي أبي ذكرتها لك في بداية حديثي كاملة وبكل التفاصيل، وبدأت بها تحديداً لمخزي أقصده، ولعلك أدركته بالطبع، بل وأسهبت في ذكر تفاصيل هذه الواقعة دون غيرها لنفس السبب خاصة فيما يخص تذكري لواقعة « عم بيومي « وأنا صبي ومن هنا بدأ الداء علي ما أعتقد.. !

أليس ما أقوله صحيح..؟!

***

بعد ذلك خرج أبي من هذه الأزمة بعدما ورط زميل بريء كما قلت لك أيضاً، وتوقعت أن خريف العلاقة الضبابية بين حازم وأبي في طريقها للانتهاء، لكن هذا لم يحدث، وذكرت لك هذا أيضاً، زادت الفجوة بين أبي وحازم رغم مساعدته لأبي، ساعده وضميره يقتله ببطء، كنت أري ذلك ولكني كذبت نفسي وتأكدت خاصة بعدما ترك حازم البيت بعد الإفراج عن أبي.. !

أعتقد أنني قلت لك من قبل كثيراً، أنني لم أفقد إيماني بنقاء حازم، لم أفقد إيماني ليقيني به دون غيره من أي شيء حولي، حتى مواجهتي وإهانتي له كانت محاولة للتأكد أن حازم مازال حياً، لا أنكر أن شعوري ارتبك بعض الشيء لكني لم أفقده بشكل كامل، كنت أتوقع عودته للحق، قلت حتماً سيعود، لن يتحمل ابتعاد فارس عنه أكثر من ذلك، فارس جند الحق كما يقول حازم.. !

***

ففي اليوم الأول لعودة حازم للبيت بعد الإفراج عن أبي، قال لي حازم انه

obeikan.com

يريد التحدث معي في بعض الأمور المهمة، قال لي من المهم أن أعرف بعض الحقيقة في بعض الأمور، في البداية تعجبت، أنا لم أكن في يوماً ما أشغل ولو حيز صغير من اهتمامات حازم لدرجة انه بات من المهم أن يخبرني بشيء ويطلعني علي خبايا الأمور، لكني استجبت، الفضول كان قائدي في هذه اللحظات، كنت لا أمانع السير في أي طريق طالما سيؤدي لتأكدي من أن حازم لم يمت.. !

ذهبت لحازم في غرفته كي أستمع لما يود أن يقوله، لكن بمجرد دخولي اقتحم « فارس « الغرفة بعنف واندفاع، ونظر شذراً لحازم ووقف أمام مكتبه وأخرج عضوه وتبول علي حازم وكتبه وصوره ثم بصق عليه وخرج.. !

٣٧

جاء خبر انتحار « حازم « دون أن يفجعني مثل باقي أشقائي والمجتمع، كنت أتوقعه أو أتوقع حدث جلل مثله، الذي انتحر حازم الذي أحدثك عنه من البداية، حازم الإنسان النقي وليس من كان يملأ الشاشات كذباً وزوراً، الحق أقول أن الخبر أسعدني وأراحني كثيراً، حازم كفر عن ما فعله وعاد للطريق الصحيح وإن انتهي به هذا الطريق هكذا..!

أن تموت نقياً طاهراُ تحارب الظلم خير من حياة يملأها النفاق والزيف، حازم الموت، وكلنا الحياة.. !

***

رفض أبي تسلم جثمان حازم، ورفض الذهاب لثلاجة حفظ الموتي أو المقابر، أبي يكره حازم ويكرهنا ويكره كل شيء حوله، لأنه ظالم مستبد، أنا أصبحت أكره أبي ولعنته بداخلي مئات المرات، وذهبت ومعي حسام وأمنية وفارس والعشرات من أصدقاء حازم للمقابر، أمي انصاعت لأوامر أبي بعدم مغادرة البيت وبقيت معها رحاب، أمي أيضاً أصابها الوهن، مازالت تخشاه واعتادت بطشه وظلمه، لا أعلم كيف تفكر..؟!

أمي أصبحت مثل كل شيء، اللعنة علي أمي وأبي وعليهم جميعاً.. !!!

Obeikan.com

« والآن، وبعد ما قرأت كل شيء من فضلك أن تحلل وتوضح لي سر ما حدث، قل لي أين أمراضي ؟ ومن أين جاءت ؟ وأين العلاج ؟

احترم رغبتي من فضلك مرة أخري في عدم مواجهتي بك، أنا أخاف كما علمت أو كنت أخاف، وأنت أشهر طبيب نفسي.

المظروف هذا به كل حياتي بمنتهي الأمانة علي ورق كتبته بخط يدي وبه أيضاً شيك مقابل أتعابك !

قل لي من فضلك وبنفس طريقتي، اترك في مظروف تشخيصك لحالتي والعلاج وسأعود كي أخذ وأطلع عليه وأبدأ العلاج.

وشكراً جزيلاً لتفهمك الأمر، في انتظارك في أقرب وقت ممكن...

تحياتي

علي

obeikan.com